KATHERINE HANNIGAN

أشعر بعميق الامتنان
أن آيدا بي موجودة
كيت ديكاميلو

آيدا بي

وخططها لزيادة المرح إلى الحد الأقصى
وتجنب الكوارث و(ربما) إنقاذ العالم

كاثرين هانيغان

ثناء على آيدا بي

- الاختيار رقم ١ من كتب الأطفال في برنامج بوك سينس (Book Sense)
- الاختيار المُدرَج على رأس قائمة المحررين لكتب بوكليست (Booklist) التي تنشرها جمعية المكتبات الأميركية
- أفضل كتاب في ببليشرز ويكلي (Publishers Weekly)
- أفضل كتاب في سكول ليبراري جورنال (School Library Journal)
- واحد من بين «١٠٠ عنوان للقراءة والتبادل» في المكتبة العامة في نيويورك
- حاصل على جائزة جوزيت فرانك للرواية، كلية بانك ستريت
- الفائز بالجائزة الذهبية باختيار الآباء
- «تخميني هو أنه سيكون هناك الكثير الكثير من القراء مثلي؛ أشخاص يقلبون الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب ويشعرون بامتنان عميق، وفرح شديد لوجود آيدا بي وكاثرين هانيغان.»

كيت ديكاميلو

الحائزة على ميدالية نيوبري

عن حكاية ديسبيرو (The Tale of Despereaux)

- «ظهور أول مثير للمشاعر ومؤكَّد، ومضحك في أغلب الأحيان.»

كيركوس ريفيوز

- «آيدا بي فريدة من نوعها بلا ريب، وقدرتها على التعبير عن مشاعرها سوف تسعد الأطفال الذين سيفهمون بالضبط ما الذي تتحدث عنه.»

بوكليست جمعية المكتبات الأميركية

- «هناك الكثير من الفكاهة التي تثير الضحك بصوت مرتفع في مشاهدات وتصرفات آيدا بي، ولكن الأوصاف الواقعية لدوّامة مشاعرها هي التي سوف تقود القراء إلى قبولها كصديقة.»

نشرة المركز لكتب الأطفال

(Bulletin of the Center for Children's Books)



وخططها لزيادة المرح إلى الحد الأقصى
وتجنب الكوارث و(ربما) إنقاذ العالم

Published by arrangement with Harper Collins Publishers



الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

آيدا بي
تأليف
كاثرين هانيغان
ترجمة
لميس فؤاد اليحيى

◆

الطبعة العربية الأولى 2014

◆

تصميم الغلاف: ديمو برس
الصف الضوئي: إيمان زكريا، عمان هاتف: 097/534156

الكتاب ... الأكثر مبيعاً على المستوى القومي

كاثرين هانيغان



وخططها لزيادة المرح إلى الحد الأقصى وتجنب الكوارث و(ربما) إنقاذ العالم

ترجمة: لميس فؤاد اليحيى



إلى الهضاب والأشجار، والرياح.

والأنهار، والنجوم.

وإلى فيكتور.

المخلصة دائما، كيه إتش.

الفصل 1

في أحد تلك الأيام، التي تبدأ بطريقة حسنة وتستمر في التوجه نحو الأمثل إلى أن تذهب إلى النوم، قالت أمي لي، «آيدا بي، عندما تنتهي من غسل الأطباق، يمكنك الانصراف إلى اللعب. سأستمر وأبي في العمل حتى وقت العشاء.»

أجبتها، «نعم، يا أمي،» ولكنني قلتها هكذا، «أي- أومي!» لأنني كنت أنتظر مواصلة عملي بفارغ الصبر. فقد كان بإمكاني فعلياً أن أسمع الغدير يناديني من خلال ستارة الباب الخلفي. «أخرجي والعبي، آيدا بي. أسرعي، أسرعي، أسرعي.» لقد كانت لدي ثلاثة أماكن كنت أرغب في زيارتها، وستة أشياء كنت أريد أن أفعلها، ومحادثتان كنت آمل في إجرائهما قبل وقت العشاء.

لقد كانت أمي تغسل أطباق الغداء وأبي ينشفها، وكنت أنا أضعها في مكانها. وكنت أعرف أن اللحظة التي وضعت فيها المقلاة الأخيرة في مكانها، كنت حرة. ولكن من الطريقة التي كان

يدردش فيها هذان الاثنان ويضحكان ويتصرفان كما لو كان لا يزال لدينا وقت حتى الأسبوع القادم لكي ننتهي من عملنا، كان بإمكاني أن أعرف أن الأمر كان سيستغرق فترة من الزمن.

لقد بدأت أشعر بلهفة عارمة في داخلي، وبدأت قدماي بالقفز، واحدة ثم الأخرى، وذلك لمرور عشر دقائق بعد تأهبهما للذهاب. لذا فقد قررت تسريع الأمور قليلاً.

كان والدي يعطيني طبقاً، وكنت أركض بسرعة إلى خزانة المطبخ وأضعه مكانه، وأعود مسرعة مرة أخرى، وأمدّ يدي لاستلام الطبق التالي، وقدمي اليمنى تضرب، تضرب، تضرب ضربات خفيفة مع الثواني التي كانت تصدر صوت تكتكة.

قال لي والدي، «اهدأي يا آيدا بي، هناك متسع كبير من الوقت للقيام بكل ما تخططين لفعله.» ومرَّر لي الطبق، ببطء وهدوء.

حسناً، لقد جعلني ذلك أقف مشدوهة في مكاني، لأن ما قاله والدي ربما كان يبدو مناسباً بالنسبة له، ولكنه كان غير مناسب بالنسبة لي على الإطلاق. فلن أكون قادرة على وضع ملعقة شاي صغيرة أخرى في مكانها إلى أن أضع الأمور في نصابها الصحيح.

قلت، «أبي،» وانتظرت إلى أن نظر إلي قبل أن أستمر.

أجابني وهو يلتفت نحوي، «نعم يا آيدا بي.»

قلت له وأنا أحدق في مقلتي عينيه مباشرة، «ليس هناك أبداً وقت كافٍ للمرح.»

اتسعت فتحة عيني أبي، وتساءلت لنصف ثانية ما إذا كنت قد أوقعت نفسي في شيء قريب من المتاعب. ولكن بعد ذلك ارتفع طرفا فمه إلى الأعلى، قليلاً فقط.

وقال للسقف وهو يهز رأسه، «آيدا بي.»

قالت أمي، «همممم،» كما لو كانت ابتسامة ستصدر صوتاً لو كان من الممكن أن يحدث هذا.

وبمجرد أن أعطاني أبي المقلاة الكبيرة، وضعتها في الدرج الذي بجانب الفرن، وانطلقت.

وناديت على كلب والدي العجوز ذي الأذنين المتدليتين، والذي كان يغفو تحت الطاولة، «هيا يا روفوس. يمكنك أن تأتي أنت أيضاً، بحيث يكون لديك صُحبَة.»

والآن، يمكن لمجموعة من الأسماك الذهبية أن تسبح في بركة اللعاب الذي يسيل من فم الكلب أثناء نومه. ولكن بمجرد أن سمع اسمه ورآني أتجه نحو الخارج قفز، ونظّف اللعاب الفائض حول فمه، وفي ثانيتين ونصف من الزمن، كان ينتظرني عند الباب الخلفي.

الفصل 2

في طريقي إلى خارج المنزل، أخذت قلم رصاص وما يكفي من الورق لأرسم أربعة رسومات جيدة وأرتكب خطأ واحداً. وحشوت الجيب الأيمن من بنطالي ببعض الحبال من أجل ربط العصي معاً للطوافات التي أبنيها وأنزلها في الجدول مع بطاقات ملاحظات مرفقة معها تقول أشياء مثل:

ما هي طبيعة الحياة في كندا؟
أرجو الرد.

آيدا بي. آبلوود
ص. ب. 42
لوسنز فروف. ويسكنسن 55500

أو

إذا وصل هذا الطوف إلى المحيط. هل يمكن التكرم بإعلامنا؟
شكراً جزيلاً لكم.

شركة آبلوود لإنشاء الطوافات
ص. ب. 42
لوسنز فروف. ويسكنسن 55500

في اعتقادي أن الجدول ينتهي عند أحد هذين المكانين، ولكنني لم أسمع أي رد بعد لإثبات ذلك. وأفضل ما حصلت عليه حتى الآن هو شخص عجوز من الطريق المتجه نحو رورينغ فوركس، استدعى أمي وأبي، وأخبرهما بأنني كنت أرسل بطاقات ملاحظات باسمي وعنواني عليها، وربما يودّان منع ذلك.

وقد عثرت معلمة من مايرز فولز، وهي البلدة التالية على الجانب الآخر، على واحدة من بطاقات ملاحظاتي، وحثّت جميع طلاب صفها على اكتشاف أشياء عن كندا. أشياء مملة مثل، «هناك اثنان وثلاثون مليون نسمة،» و«بعض صادرات كندا الرئيسية هي الأخشاب والألمنيوم،» وقد أرسلوا كافة هذه الحقائق والأرقام إلي داخل مغلف.

وطلبت مني أمي أن أكتب بطاقة شكر رداً عليهم، لذا، قمت برسم صورة لأحد أفراد شرطة الخيالة الملكية الكندية وهو يحمل

ملكة إنجلترا على ذراعيه، وهما يعبران شلالات نياغرا داخل برميل خشبي، ويلوحان بأوراق القيقب المصنوعة من الألمنيوم، ويصرخان بسعادة، وكتبتُ، «شكراً جزيلاً على المعلومات،» و«لنأمل أنهما يقضيان بعض الوقت المرح في كندا، أيضاً. تفضلوا بقبول فائق الاحترام، آيدا بي. آبلوود.»

وهكذا، كان لدي حبالي وأوراقي وكلب أبي وثلاث قطع من العلكة بحيث كان بإمكاني أن أنفخ بها بالونات كبيرة بحجم وجهي مع الحذر من إبقائها بعيدة عن روفوس، لأنه اقترب في آخر مرة من أحد هذه البالونات، بقينا ننزع العلكة عن فرائه لمدة شهر بعدها. وتوجهت إلى بستان التفاح.

وقلت، «مرحباً بيولا، مرحباً تشارلي، مرحباً باستيل،» وهي بعض الأسماء التي أطلقتها على تلك الأشجار. لقد كانت جميع أشجار التفاح مليئة بالبراعم، وعندما تقف في المنطقة التي تتوسطها تماماً، يكون بإمكانك أن تشم جمالها، ولكن ليس كثيراً لكي لا تزعجك.

لقد كنت أجلس أصلاً تحت هنري الثامن، وقد بدأت العمل في رسم كنت قد بدأته في اليوم السابق. لقد كان يمثل البستان بعد الحصاد، مع سلال التفاح تحت جميع الأشجار. وكان يجلس كل من أمي وأبي وأنا والقطة لولو، وروفوس في شجرتنا الخاصة، نأكل شرائح من فطيرة التفاح. وكنت أرسم روفوس، الذي كان ينتشر عليه كله مزيج من اللعاب وفتات الخبز، وكانت لولو ترمقه بنظرة تحمل أكبر قدر من الاشمئزاز، عندما أدركت أنه لم تقم أي شجرة بقول أي شيء رداً عليّ.

والآن، قد يستوقفني بعض الأشخاص هناك بالضبط ويقول، «آيدا بي، يمكنك أن تنتظري إلى الأبد ولن تسمعي واحدة من تلك الأشجار تتكلم إليك، ناهيك عن الغدير. إنها لا تملك أفواهاً، ولا تتكلم، وربما أنك بحاجة لأن تذهبي إلى عيادة الطبيب وإجراء فحص دقيق جداً حالاً وسريعاً.»

وبعد أن أخذت دقيقة لأمنح صبري وتحمُّلي فرصة لينقذا فمي من التفوه بالوقاحة التي كانت تتوق إلى القفز منه، أود أن أقول فقط هذا، «هناك أكثر من طريقة واحدة للإصغاء، أيضاً. وإذا لم يسبق لكم أبداً وأن سمعتم شجرة تقول لكم شيئاً ما، فإنني عندئذ سأقول إنكم لا تعرفون حقاً كيف تصغون بعد. ولكنني سأكون سعيدة بمنحكم بعض المؤشرات في وقت ما.»

وهكذا أعطيت تلك الأشجار فرصة أخرى لترد وصرخت، «لقد قلتُ، 'مرحباً،' للجميع. ألم تسمعوني؟»

ولكن بدلاً من الترديد المعتاد بـ«مرحباً» و«أهلاً بك»، قالت فيولا فقط، «كيف حالك اليوم يا آيدا بي؟»

قلت، «أنا بخير في هذا اليوم الذي بدأ يصبح رائعاً، ما الذي حدث للجميع؟ لماذا أنتم جميعاً هادئون جداً؟»

ولكنهم بقوا صامتين. حتى الأشجار ذات الصوت المرتفع. لاسيما الوقحة منها.

وصرخت، «هيه، ما الذي يجري؟»

وأخيراً، سمعت جيرترود تهمس، «أنت قولي لها يا فيولا.»

ردت فيولا همساً، وبحذر شديد.

«حسناً.» بالرغم من أن فيولا همهمت وتلعثمت قليلاً. وبدأت قائلة، «حسناً...» و«همممم.... آههه، إممم...» وحاولت مرة ثانية إلى أن نطقت شيئاً في نهاية الأمر. «آيدا بي، كيف تسير الأمور في المنزل؟ كيف حال عائلـــــ»

ولكن قبل أن تتمكن من إنهاء الكلام، كان ذلك المشاكس بولي تي قد قاطعها. «لقد سمعنا إشاعة بأن هناك أمراً ما سيئاً في طريقه إليك يا آيدا بي.» ولو كان بإمكان الأشجار أن تبتسم مثل فوانيس اليقطين المضيئة بنوايا شريرة، فذلك هو ما قام بفعله بولي تي في ذلك الحين.

فسألت، «ومن أخبرك بذلك يا بولي تي؟» لأنني لم أكن أئتمنه على ملء كشتبان من الماء، ناهيك عن قوله الحقيقة.

قال، «أنا لا أكشف مصادري.»

«هل سمعت شيئاً يا فيولا؟ وماذا عنك يا بياترس؟ أم هل بولي تي يهذي فقط؟»

قالت لي فيولا، «آيدا بي. لا تلقِ له بالاً. لقد تناهى إلى أسماعنا شيئاً عن عاصفة تتجه نحوك، وكنا جميعاً نهدأ ونأمل أن تكوني بخير، أيضاً، هذا كل ما في ا لأمر.»

قلتُ، «ليست هناك عاصفة قادمة اليوم. ألا يمكنكم أن تشعروا كم هو جميل الطقس؟»

قالت فيولا، «انتبهي لنفسك الآن يا آيدا بي.» ثم وقفوا جميعهم هناك، كما لو كانوا ينامون وهم واقفون.

حسناً، لقد تعبت من الشعور كما لو كنت وحيدة في ذلك الحشد الخاص، وكنت منزعجة من سعادة بولي تي على حسابي. وقلت، «حسناً إذن، إنني أوجِّه لأحصل على بعض المتعة في مكان ما آخر.» ولم يرد أي منهم بكلمة واحدة.

وبمجرد أن وصلت وروفوس إلى الغدير، سألت على الفور، «هل سمعت شيئاً عني وعن تعرضي لبعض المتاعب؟»

قال الغدير متجاهلاً سؤالي، «هل أحضرت الطوافات؟ هل أنت مستعدة للعب؟ جهزيها وألقها في الماء لنتمكن من اللعب يا آيدا بي.»

«خلال دقيقة. أولاً، أريد أن أعرف ما إذا كنت قد سمعت شيئاً عن متاعب تتجه نحوي.»

أجاب الغدير، «يا إلهي، هلّا نظرتِ إلى ذلك، لقد تأخرت عن موعد يا آيدا بي، يجب أن أذهب، يجب أن أذهب.

تابع الغدير وهو يتدحرج مبتعداً، «من الأفضل أن تتحدثي إلى الشجرة العجوز.»

وصاح وهو يتعثر فوق الصخور وحول الجبال، «نعم، نعم، تلك فكرة جيدة.» وذهب.

والآن، في ذلك الحين كنت على وشك أن أفقد صبري مع تلك المجموعة، ولكن التحدث إلى الشجرة العجوز كان نصيحة جيدة، لذا لم أكترث كثيراً بوقاحة الغدير.

تسلقتُ وروفوس الجبل -الذي لم يكن جبلاً في الواقع، ولكن كلمة «تلة» هي كلمة صغيرة جداً بالنسبة له- إلى أن وصلنا إلى الشجرة العجوز التي لم يكن لها أوراق، وبالكاد بعض اللحاء. إن تلك الشجرة عارية وبيضاء، ويعتقد الناس أنها ميتة، ولكنها ليست كذلك؛ إنها فقط أكبر من عجوز، وبالكاد تتكلم، وحتى إن تكلمت، فإنه يتعين عليك في أغلب الأحيان أن تنتظر لفترة. ولكن عندما تتكلم، فإنك ترغب بالاستماع إليها، وذلك لأنها أكثر حكمة من الحكيم. وهي تقول الحقيقة دائماً، على خلاف بعض الأشجار الصغيرة التي تخبرك بما تعتقد أنك تريد أن تسمعه، أو أنها فقط ذكية جداً جداً.

عندما وصلنا أمام الشجرة العجوز، قلتُ، «هناك إشاعة في كل مكان تقول إنني سأتعرض لبعض المتاعب. وذلك من بولي تي، وأنت وأنا نعرف كلانا أن كلامه لا قيمة له. ولكنني كنت أتساءل ما إذا كان هناك شيء ما يجب أن أعرفه؟»

ثم تسلقت أغصان الشجرة، وجلس روفوس في الأسفل عند الجذع. أسندت رأسي على أحد الأغصان، وأغلقت عينيّ، وتهيأت للاستماع بكل جوارحي، لأن ذلك هو ما يجب عليك أن تفعله مع تلك الشجرة بالذات.

كنت قد أمضيت فترة طويلة وأنا جالسة هناك، وكنت غير مبالية أبداً. لقد كان الغصن الذي كنت أسند عليه وجهي دافئاً وناعماً، وكان لا يزال اليوم يبدو كما لو كان لا يمكن أن يحدث فيه أي شيء سيء. لقد كنت مستعدة لتصديق أن بولي تي كان فقط يمارس شقاوته، عندما اعتراني شعور بارد داخلي ورأيت غيمة سوداء أمام عيني المغلقتين.

ووصلتني رسالة، ولكن ليس بالكلمات. تلك الشجرة تدعك تعرف الأشياء، تلك الأشياء التي تدخل في قلبك، ومن ثم تجد طريقها نحو الأعلى إلى رأسك، وبمجرد أن تصل إلى هناك، فإنها تتحول إلى كلمات. على الأقل، تلك هي الطريقة التي أعتقد أن الأمور تجري بها. لذا، إذا كان يتعين علي أن أعبر عنه بكلمات، فهذا هو ما قد أقول إن الشجرة كانت تخبرني به: «هناك أوقات صعبة مقبلة.» حسناً، انفتحت عيناي بحيث لم أعد مضطرة للنظر إلى ذلك الظلام بعد ذلك. قفزت من على الشجرة، وكنت على وشك أن أهبط فوق روفوس، مصنع اللعاب، لأنني شعرت كما لو أنني تلقيت صدمة عبرت جسدي.

سألت، «ماذا؟ ماذا قلت لي؟» ولكن الشجرة العجوز بطيئة في الكلام، ولا تكرر قولها. إنها تقف هناك فقط، مثلما وقفت أشجار التفاح تلك من قبل.

«هل تقولي لي إن بولي تي محقّ؟ هل هناك متاعب تتجه نحوي؟»

ولكنني كنت أعرف أنني لن أسمع أي رد. وفي يوم كذلك اليوم، والشمس تسطع، وهناك أربع ساعات حتى موعد العشاء،

وسبعة بنود أخرى على قائمتي من الأشياء الممتعة التي أريد أن أفعلها، وقمت بفعل الشيء المنطقي الوحيد. لقد قررت أن الشجرة الكبيرة ربما لم تكن تفكر بشكل جيد كما كانت تفعل قبل بضع سنوات مضت. والاتفاق مع بولي تي. كان إشارة أكيدة إلى أن هناك شيئاً ما كان خطأ. ولكنني أردت أن أكون مؤدبة وأن لا أقول أي شيء مُهين.

صرخت عندما بدأت بالركض، «حسناً، شكراً لمساعدتي،» إلى أسفل التلة وبجانب الجدول وعبر البستان، والطريق كلها إلى المنزل. أنهيت رسوماتي في غرفتي، بأمان وبعيداً عن الطريق، في حال هبت عاصفة ما.

وباستثناء العشاء الذي اشتمل على فاصولياء بيضاء وكرنب، لم يحدث أي شيء سيء في تلك الليلة أو في اليوم التالي. وبعد يومين، هبت علينا عاصفة مصحوبة بالرعد والبرق. لقد كانت هناك فوضى في الخارج حيث كانت الأوراق والأغصان تتطاير، ولولو تختبئ تحت السرير محاولة التظاهر بأنها لم تكن خائفة، وإنما كان لديها مجرد فضول بشأن كرات الغبار تلك.

وأعتقد أن ذلك هو ما كانت تلك الأشجار تتحدث عنه. وظننت أنه لم تكن هناك حاجة لأتعب رأسي بشأن ذلك مرة أخرى.

الفصل 3

«آيدا بي.» هذه هي الطريقة التي كان أبي وأمي، وأي شخص يعرفني جيداً بشكل خاص، ينادون بها اسمي. إن اسم أمي هو آيدا، وعلى الرغم من أن اسمينا متماثلان تقريباً، فإن أبي يقولهما بطريقة مختلفة تماماً.

فمعظم الوقت عندما يقول أبي «آيدا بي،» يكون ذلك سريعاً وبابتسامة ويصعد ويهبط بسرعة كبيرة، مثل النقر بقدميك مع موسيقى مبهجة.

ولكن عندما يقول «آيدا،» فإن ذلك الاسم يتعرض للمطّ والمطّ، بدون حواف خشنة أو منعطفات حادة. ويقول «آييييـ - داا»، وتنتقل أنفاسه في كافة أنحاء الغرفة، وتنزلق على أكتاف أمي، ثم على خصرها، وتواصل الانتقال خارج المنزل بحيث يصبح الجميع مغلفاً بليونته الدافئة. ولا يزال بإمكانك سماعه في رأسك بعد أن يكون الصوت قد توقف، وتبتسم فقط لمجرد أن شخصاً ما قال الكلمة «آيدا،» التي لا تعتبر حتى الاسم الأجمل في العالم.

والمرة الوحيدة التي أكون فيها أي شيء غير «آيدا بي» في المنزل هي عندما أكون واقعة في ورطة. فإذا كان ذلك هو الحال -وقد حدث ذلك في مناسبة أو اثنتين- ويناديني أهلي وهم يصرخون، إنها «آيدا بي. أبلوود.» وتكون جميع الكلمات مقطّعة كما لو تم ضربها بمطرقة: «آيدا ... بي ... أبلوود ... أين أنت؟ عودي إلى المنزل!»

بعد ذلك، وحيثما أكون، جالسة في الشجرة العجوز، أو فوق الجبل، أو أقوم ببناء سد في الغدير، أقول، «حسناً، هأنا ذا. أعتقد أنني سأضطر للذهاب.»

وإذا كنت في البستان، ستقول لي أشجار التفاح الأكبر سناً، «من الأفضل أن تسرعي بالذهاب يا لآيدا بي» أو «اذهبي الآن واعرفي ما الذي يريده والدك.»

ولكن الغدير يتذمر ويتملق دائماً: «لا تذهبي يا آيدا بي، لا تذهبي. لا أحد يناديك، ويمكنهم الانتظار، على أي حال. ابقِ يا آيدا بي. ابقِ والعبي.»

أنا لا أقع في متاعب بسبب أشياء كبيرة، فمعظم الوقت تكون مجرد أمور بسيطة: كان دوري في وضع الأطباق في أماكنها ونسيت، أو أطعمت بواقي حساء الفاصولياء والذرة للحيوانات البرية المسكينة والجائعة في الجوار.

وفي إحدى المرات، صنعت بيتاً للقطة لولو من مجموعة كاملة من الكتب والصناديق. وبدأت في منتصف غرفة المعيشة بأكبر

صندوق ليكون منزل لولو الخاص. وكان له مكنسة على أنها هوائي التلفاز، ومخدة من الأريكة لتكون سريراً، وفتحت نوافذ بالسكينة الكبيرة الحادة، وقمت ببناء مكتبة، وغرفة ألعاب، وغرفة طعام ببعض الصناديق الأخرى. وصنعت شققاً تحت الكراسي والطاولات بواسطة ملاءات وبطانيات تغطيها من الأعلى على شكل خيام، بحيث يمكن لأصدقائها - الذين - قد - تصاحبهم - يوماً ما - عندما - تحسن - موقفها أن يأتوا ويزوروها. لقد أصبح كبيراً جداً لدرجة أنه غطى غرفة المعيشة بكاملها تقريباً وكان ينسكب داخل الممر.

وكانت لولو سعيدة جداً لدرجة أنها كانت على وشك إصدار صوت خرخرة على ما أعتقد.

ولكن لولو شعرت بعد ذلك بالملل، وخرجتْ، وخرجتُ معها، وبعد فترة قصيرة جداً، سمعت «آيدا بي آبلود!» هناك بجانب الغدير.

لذا، عدت إلى المنزل، وأعدت كل شيء إلى مكانه. ولكن كان من المحزن أن أضطر إلى إغلاق منتجع المدينة الكبيرة المذهل متعدد الطوابق الخاص بالقطة لولو وأصدقائها الذين ستكوِّنهم يوماً ما.

وأحدثتُ في وقت آخر ضجة، وتسببتُ بإزعاج أمي وأبي، ولكن ليس لدرجة الجنون، عندما اخترعتُ قناع الصابون.

والآن، ربما تعرفون أنه بالنسبة لكل اختراع، تم ابتكاره في أي وقت، يغير التاريخ وذي شهرة على مستوى العالم، كانت هناك

أولاً مشكلة تحتاج إلى حل. وكانت هذه هي مشكلتي: الكثير جداً من الغسيل، وعلى الأخص لوجهي.

عندما أنهض من النوم في الصباح، يجب علي أن أغسل وجهي ويديّ. وقبل أن يكون بإمكاني تناول عشائي أو الذهاب إلى المتجر أو الذهاب لأي زيارة، يجب علي أن أغسلها مرة أخرى. يبدو الأمر كما لو أنه يتعين علي، في كل مرة تقريباً أتحمس فيها وأرغب في مواصلة حياتي، أن أتوقف وأغسل وجهي ويديّ. وعندما أنتهي من ذلك، من يعرف ما هي الفرص التي فاتتني.

لذا، فقد كنت أفكر بأنه كان بإمكاني توفير الكثير من الوقت والطاقة إذا تمكنت من اكتشاف طريقة للمحافظة على وجهي نظيفاً، وقناع الصابون كان هو ما توصلت إليه. «جدار منيع ومعقِّم لوجهك.» «درع يصد الجراثيم في حين ينظف مساماتك بلطف، تاركاً مظهراً خارجياً نظيفاً بشكل رائع.» «تنظيف مثالي وثابت وأبدي.» كنت أفكر بأن ذلك هو ما ستقوله الإعلانات عندما أضعه في الأسواق وأبيع عشرة ملايين منه.

لقد كنت أعرف أن قالب الصابون لن يكون نافعاً في هذا المشروع. أولاً، لأنك إذا بللته ووضعت منه طبقة كثيفة، يكون أبيض ورغوياً، وسيبدو سخيفاً. إضافة إلى أنني لم أكن أعتقد أنه سيكون قوياً بما يكفي. كنت أريد حلاً قوياً.

والآن، إليكم ما هو الرائع بشأن صابون غسيل الأطباق: إنه ينتشر في كل مكان بشكل جيد، ولكنه يلتصق أيضاً في مكان واحد،

وسوف يجف إذا ترك في الهواء لفترة قصيرة، وهو قوي جداً، ومضاد للبكتيريا. رائع. وذات ليلة، بعد العشاء، أخذت عبوة من أفضل سائل لدينا لتنظيف الأطباق إلى الحمام الذي في الطابق العلوي، وأغلقت الباب، ودهنت طبقة رقيقة من هذه المادة على وجهي كله. وبعد ذلك جلست في غرفتي وشعرت بأن السائل كان يجف ببطء، ويصبح مشدوداً أكثر وأكثر، واندمج مع جلدي بحيث أن وجهي بكامله كان يتحول إلى صاد للأوساخ. وتركت الصابون على وجهي طوال الليل، أيضا، بحيث يكون هناك وقت لخصائصه القاتلة للأوساخ والأمراض أن تثبت تماماً.

في الصباح بدا وجهي مكشوطاً، كما لو أنني قد غسلته بليفة السلك. لقد كان أحمر ولامعاً، وبدا، نوعاً ما، كما لو كان مقروصاً. لقد كنت أشعر بحكة وحرقة، شيء ما قريب إلى ما هو مؤلم، ولكنني عزوت ذلك إلى القوة الفعالة للقناع.

ذهبت إلى الطاولة لتناول وجبة الإفطار، وكنت أبتسم ابتسامة عريضة جداً في كل مرة كنت أقول فيها، «مرروا لي الحليب، إذا سمحتم» أو «مرروا لي المناديل الورقية، إذا سمحتم.» وكنت أنتظر أن يلاحظ أبي وأمي بريق وجهي.

أخيراً، وبعد أن طلبت الحليب مرتين وأنا لا أريده، حدق أبي وأمي في وجهي وقد فغرا فاهيهما. وكنت متأكدة من أن ذلك كان بسبب الرعب والذهول من لمعان وجهي الساطع.

وقالت أمي، «إيفان، هل ترى ذلك؟ إنها لون وجهها يتحول إلى الأحمر الزاهي ومن ثم إلى الأبيض، أحمر وأبيض، مثل اللافتة المضاءة بالنيون.»

رد أبي، «إنني أرى ذلك يا آيدا.»

وبعد ذلك، حدث كل شيء بسرعة كبيرة بحيث لم تسنح لي الفرصة لأنطق بكلمة واحدة. وقالت أمي شيئاً عن الحمى القرمزية، وقال أبي شيئاً آخر عن النكاف أو جدري الماء، وكانت أمي تتصل بالطبيبة، وأبي يلفني ببطانية ويضعني في الشاحنة. والشيء التالي هو أننا كنا جميعاً نسير بالشاحنة إلى داخل البلدة، وكانا هادئين جداً ومتوترين، لقد بدا الأمر كما لو لم يكن الوقت المناسب للكلام، ناهيك عن الكلام عن اختراعي المبتكر والمُزلزِل.

حسناً، دخلنا لرؤية الطبيبة بسرعة كبيرة. وقامت بفحص كل جزء مني، تقريباً، ومن ثم سألتني، «آيدا بي، هل فعلت شيئاً لوجهك؟» عندئذ، أخبرتها كل شيء عن قناع الصابون.

أصغت إلي بانتباه شديد، ثم قالت، «آيدا بي، إن وجهك يتلون، وتشعرين كما لو كان وجهك يحترق، وذلك لأن صابون غسيل الصحون قد سبب تهيجاً له. لذا، سنقوم بغسله، وسأعطيك غسولاً لتهدئة جلدك، وسيعود إلى حالته الطبيعية في وقت قصير جداً.».

ومن ثم ابتسمت لي ابتسامة عريضة، وقالت، «ولكن لا مزيد من أقنعة صابون غسيل الصحون، حسناً؟»

و،ذن، على الرغم من انه لم ينجح بشكل جيد كما خططت نه، فإنني أعتقد أن الطبيبة كانت تخبرني بأن قناع الصابون، بدون صابون غسيل الأطباق، كان لا يزال فكرة ممتازة تستحق الاستكشاف، لذا، فقد شجعني ذلك. وكانت تقول إن ومضات اللهيب التي بقيت تجتاح وجهي من الداخل إلى الخارج، سيتم إخمادها سريعاً بواسطة محلول بسيط جداً.

قلت، «حسناً،» وابتسمت، ونظرت إلى أمي وأبي.

حتى هذه اللحظة، كانا يبدوان عصبيين جداً، وكانا يقبضان أيديهما ويحدقان بقسوة في وجهي، ومن ثم في وجه الطبيبة.

ولكن بينما كانت الطبيبة تتحدث إلي، تحوّلا. أولاً أخرجت أمي تنهيدة كبيرة، وابتسم أبي وهز رأسه. ومن ثم حملني أبي وقال، «آه يا آيدا بي،» وعانقت أمي كلينا. لقد أقمنا حفلة آيدا بي على ما يرام لشكر الرب على الفور، وكل ما لم يكن موجوداً هو الكعك والهدايا.

وبعد أن انتهينا من عناق بعضنا البعض، ومعانقة الطبيبة، ومصافحة موظف الاستقبال، ركبنا الشاحنة للعودة إلى المنزل.

ولكن قبل أن يشغل أبي المحرك، التفت أمي إلي وقالت بشكل جدي تماماً، «آيدا بي، إن الذهاب إلى الطبيبة مُكْلِف، لذا، يجب عليك أن تخبرينا دائماً ما إذا كان هناك شيء ما خطأ أو ما إذا لم يكن كذلك، اتفقنا؟»

قطبت حاجبي وفتحت عيني مثلها تماماً لكي تعرف أنني كنت جادة، أيضاً، وقلت، «اتفقنا يا أمي.»

ولكنني كنت أفكر في عقلي بما يلي: إذا انتظرت الطفلة حتى ينهي الكبار من الكلام ويعطونها فرصة لتعبر عن رأيها، فإن الأشياء الأكثر أهمية لن تُقال أبداً.

الفصل 4

في الليالي التي كان ينتهي فيها أبي من عمل اليوم، ونحن متخمين من العشاء، وروفوس يتسكع في كل مكان آملاً أن يرافقه أحد في جولة، والنجوم كلها تسطع وتبدو كما لو كانت قريبة جداً لدرجة أن بإمكانك التقاطها، قد يقول أبي، «آيدا بي، لنأخذ روفوس ونذهب لنرى العالم وهو نائم.»

كنت أردّ قائلة، «حسناً يا أبي.» وكنا نبدأ نزهتنا خلال الحقول والبستان وحول سفح الجبل، وروفوس يركض أمامنا ليرى كم عدد الأشياء التي كان بإمكانه أن يلصق بها أنفه في ليلة واحدة بدون أن يعلق بها أو يتعرض للدغة أو لرشّة.

هذه هي الأوقات التي كان أبي يحدثني فيها عن حقائق عميقة وثابتة. لذا كنت أحاول أن أبقى ساكنة، بقدر ما يمكن لواحدة مثلي أن تبقى ساكنة، ومصغية.

وفي إحدى الليالي، كنا نتمشى، وأخذ أبي نفساً عميقاً، ذلك النوع الذي يبدو كما لو أنك تشمّ شيئاً عندما يدخل الهواء، وتتنهد

عندما يخرج الهواء. وهذا يعني أن هناك شيئاً هاماً على وشك أن يُقال.

وقال، «آيدا بي، » ليتأكد من أنني كنت منتبهة.

«نعم يا أبي،» جعلته يعرف أنني كنت منتبهة.

«أريدك أن تفكري بشأن أمر ما.»

«حسناً.»

توقف أبي عن المشي، ومن ثم توقفت أنا عن المشي. وذلك لأنك، في بعض الأحيان، عندما تقول شيئاً عميقاً وثابتاً، فإنك تريد أن تقوله بحيث يكون هو الشيء الوحيد الذي تفعله، وأن يكون الإصغاء إليه هو الشيء الوحيد الذي يفعله الشخص الآخر. ونظر كلانا إلى الحقول والجبل والسماء أمامنا مباشرة. وبعد ذلك بدأ.

«آيدا بي، يوماً ما ستكون هذه الأرض لك.»

«نعم يا أبي.»

«وسيقول القانون إنك تملكين هذه الأرض وإن بإمكانك أن تفعلي، تقريباً، ما تشائين بها.»

قلت مرة أخرى، «نعم يا أبي.» وذلك لأنني كنت أعرف أنه لن يستمر إلى أن أتحدث أنا، أيضاً. على غرار الوضع في الكنيسة عندما ينتظر القِس أن تقول «آمين» قبل أن يستمر في إلقاء موعظته.

«ولكن أريدك أن تتذكري ما يلي: نحن لا نملك الأرض، إننا من يقوم على رعاية الأرض يا آيدا بي.» وهناك أخذ نفساً آخر من تلك الأنفاس العميقة. «إنني ممتن لأن لدينا هذه الأرض، وممتن

لأنك سوف تحصلين عليها، أيضاً. ولكننا لا نمتلكها، إننا نرعاها ونرعى كافة الأشياء التي فوقها. وعندما ننتهي من ذلك، فإنه يجب تركها أفضل من مما وجدناها عليه.»

والآن، يجب أن تعرف أن أبي هو رجل ذكي جداً. ولا نختلف في معظم الوقت تقريباً، إلا في أشياء مثل وقت النوم، وما إذا كان يجب إجبار الأطفال على تناول أطعمة معينة. لذا، ففي حين أنني كنت أوافق على معظم ما قاله، كنت أفكر بأنه ربما يرغب في إعادة النظر في إحدى أفكاره. وقد كنت بالضبط الشخص الذي سوف يساعده في ذلك.

ولكن عندما يتحدث أبي بذلك الشكل، لا أقول أي شيء على الفور. لقد بدا جديّاً جداً عندما قال ذلك، «إننا نحن من يقوم على رعاية الأرض، يا آيدا بي،» وهو يحدق في السماء ، ويمسح على حاجبيه، ويومئ برأسه. لقد كنت أعرف أنه كان يتعين علي أن أنتظر قليلاً قبل أن أشارك بحكمة آيدا بي الذهبية وفائقة الأهمية. وهكذا مشينا لفترة من الوقت.

ولكن عندما عدنا أدراجنا متوجهين نحو المنزل، ووصلنا إلى البستان، قلت، «أبي؟»

«نعم يا آيدا بي.»

«أعتقد أن هناك ما يكفي من التفاح الذي ينمو في ذلك البستان، بحيث أن بإمكاننا أن نصنع فطيرة في كل يوم من أيام الأسبوع، وأن نرسلها بعضاً منها إلى ملكة إنجلترا، أيضاً.»

قال أبي، «هممم.»

وأعطيته بضع دقائق ليتأمل في تلك الفكرة.

وعندما كنا نمر بجانب الجدول، قلت، «أبي؟»

«نعم يا آيدا بي.»

«أحياناً، في فصل الصيف، أتعرّق وتنبعث مني رائحة كريهة جداً، لدرجة أن لولو تهسهس علي عندما أقترب منها، وحتى روفوس يهرب. لذا، سوف آتي إلى هنا وأستلقي في الغدير وأنا لا أزال مرتدية ملابسي. وأدع برودته تتدحرج فوقي وأشعر بالرائحة الكريهة تبتعد عني، أيضاً. وذلك، يا أبي، مبهج.»

ابتسم أبي فقط.

ومنحته بعض اللحظات ليستوعب هذه الفكرة ببطء.

وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى حافة الحقول، كان القمر يضيء بسطوع شديد لدرجة أن الطريق بدا وكأنه يتلألأ. كما لو أن القمر كان يكشف لنا الطريق إلى المنزل.

لذا، فقد أشرت فقط. وأومأ أبي برأسه كما لو أنه عرف ما الذي كنت أعنيه.

وبمجرد أن أصبحنا على الطريق قلت، بهدوء شديد،

«أبي.»

«نعم يا آيدا بي.»

توقفت عن المشي.

وعندما رأى أبي ما كنت أفعله، توقف هو أيضاً، وانتظر.

«أعتقد أن الأرض تعتني بنا هي أيضاً.»

حسناً، نظر أبي إلي وهو مندهش نوعاً ما. ووقف هناك للحظة وهو يفرك ذقنه ويتأمل.

وأخيراً، ابتسم وأومأ برأسه وبدأ المشي من جديد، ومشيت معه، وقال،

«أعتقد أنك على حق يا آيدا بي.»

وبقينا صامتَيْن بقية الطريق إلى المنزل، نستمتع فقط بالنسيم الذي كان يهب من خلال النجوم.

الفصل 5

هذا هو ما أتناوله في وجبة الفطور كل يوم: الشوفان الساخن مع الزبيب والحليب، وبدون سكر. وحتى في الصيف. وعلى الأخص في الشتاء.

وتسألني أمي من حين لآخر، «ألا ترغبين بالقليل من التنوع يا آيدا بي؟»

والآن، عندما ننهض من النوم، يكون الظلام لا يزال مخيماً في الخارج في أغلب الأحيان. وفي بعض الأحيان، أكون عند وقت الفطور متعبة جداً لدرجة أن كل ما يمكنني فعله هو إبقاء رأسي مسنوداً بذراعي الموضوعة على الطاولة، وأفتح عيني فقط لأتأكد من أن الشوفان موجود على الملعقة وأنها تتجه نحو فمي، ولكنني أغلقهما عندما أمضغ. وأكون غير مستعدة لأي أفكار متعمقة أو أي مفاجآت.

لذا، فعندما تسألني أمي ذلك، أقول، «إن الوقت مبكر جداً للتنويع يا أمي.»

وهذا ما أتناوله في وجبة الغداء كل يوم: زبدة الفول السوداني على شريحة من الخبز، وحليب، وتفاحة، ومن الأفضل أن تكون من نوع مكنتوش، لأن هذا النوع من التفاح يكون ذا طعم مميز وقشرة رقيقة، والذي يقول عنه أبي إنه يشبهني في بعض الأحيان.

ويقول أبي، «ألا تريدين أن تجربي شيئاً مختلفاً يا آيدا بي؟»

حسناً، عند وقت الغداء أكون متيقظة تماماً، فقد كنت منشغلة أصلاً بالقيام بأعمالي اليومية والتعلّم والحصول على بعض المرح. إن لدي قائمة بأشياء لا أستطيع أن أنتظر للقيام بها في فترة ما بعد الظهيرة، ورأسي مليء بكامله بأفكار وخطط مشوِّقة. وذلك هو بالضبط ما أريده أن يبقى عليه.

وأقول، «هناك الكثير جداً من الأشياء للتفكير بها في هذا العالم إلى جانب ما سأتناوله على الغداء، يا أبي.» وهو ينظر إلي كما لو كنت لغزاً حقيقياً.

وهذا هو ما أتناوله في وجبة العشاء كل يوم: أي شيء يعدّه أبي وأمي ، والكثير جداً منه، ما لم يكن فاصولياء بيضاء أو كرنب.

وقد يسأل أبي وأمي، «هل تريدين المزيد يا آيدا بي؟»

وفي أغلب الأحيان أقول: «نعم، لو سمحتوووووما.» على الأخص إذا كان حلوى.

وفيما عدا ذلك، فإننا ندردش في وقت العشاء عن اليوم وما نريد أن نفعله في الغد، ويسألاني أسئلة مثل، «ما هو الفعل في

الجملة: قدمت أمي على مضض قطعة أخرى من الحلوى إلى آيدا بي؟» أو «آيدا بي، هل يمكنك تهجئة كلمة 'متعنِّت' ووضعها في جملة؟»

وأجيب، ما لم يكن، بالطبع، فمي مملوءاً بالطعام.

والآن، إن الحديث بهذه الطريقة وقت وجبة العشاء قد يبدو غريباً نوعاً ما، لأنني ذهبت إلى بيوت أشخاص آخرين لتناول وجبات طعام، وهم لا يسألون بعضهم بعضاً «ما هو الكوكب الأقرب إلى الشمس، يا عزيزي، ومرر لي البطاطا، لو سمحت؟» سواء كانت الأفواه مملوءة أم لا.

إن السبب الذي يجعلنا نتحدث هكذا هو أنني حتى السنة الماضية كنت أتلقى تعليمي في المنزل. وذلك يعني أنه كان يجب علي أن أنهض في الصباح مع أمي وأبي وأساعد في الأعمال اليومية. ومن ثم يجب أن أقوم مع أمي بتعلّم الرياضيات والعلوم، مثل جدول ضرب الثمانية أو أجزاء النبات، أو «آيدا بي، إذا أعطيتك عشرين دولاراً لتذهبي إلى المتجر وتشتري بعض الدقيـ...»

وقبل أن تتمكن من أن تقول أي شيء أكثر من ذلك، كنت أقول، «أي متجر؟»

«لا يهم.»

«حسناً، هل أذهب ماشية؟ لأنني أعتقد أن المسافة بعيدة جداً بالنسبة لي لأمشي إلى المتجر الذي في البلدة، وأحمل كيساً كبيراً من الدقيق معي وأنا عائدة إلى المنزل.»

عندئذ كانت تعبس في وجهي وتقول، «أوه يا آيدا بي، دعيني أكمل الآن،» كما لو كنت أختبر بجديّة مدى صبرها.

ولكنني لم أكن سبباً في الصداع عن قصد. لقد كان الأمر فقط يبدو كما لو أنها كانت تروي قصة عني، وكنت أريد أن أعرف بالتحديد ما الذي كان يحدث، بحيث يمكنني أن أعد خطة. لأنني سأخبركم شيئاً آخر عن نفسي: أعتقد أن الخطط الجيدة هي الطريقة الأفضل لزيادة المتعة إلى الحد الأقصى، وتجنب وقوع كوارث، وربما، إنقاذ العالم. إنني أخصص الكثير من وقتي من أجل إعدادها.

لذا، فإن أمي قد تقول بعد ذلك، «لنبدأ من جديد. والدة بيلي ريفرز أعطته عشرين دولاراً لكي يذهب إلى المتجر ــــ»

وكنت أسأل، «من هو بيلي ريفرز؟»

«ليست شخصاً حقيقياً، مجرد تخيّل.»

«إذن هل من الممكن أن يكون فتاة بدلاً من أن يكون صبياً؟ وهل من الممكن أن نسميها دليلة؟ وهل من الممكن أن يكون لديها نظارات خضراء تلمع ــــ»

«آيدا بي!»

«حسناً، إذن، تابعي.»

وكانت تعطيني باقي المعلومات، وأقوم بتدوين الأرقام على الورقة، وأحصل على الإجابة صحيحة بنسبة تسعة وتسعين بالمائة من المرات. وكانت أمي تقول، «إنه عمل جيد يا آيدا بي، لمجرد تحصلي على الإجابة.»

وفيما بعد، في فترة ما بعد الظهيرة، كان أبي يقوم بالقراءة معي ونحن جالسان على الكرسي الكبير، أو كنا نقوم بكتابة قصص. ولكننا كنا معظم الوقت نعيش كما نعيش دائماً، ونتحدث عن أشياء، ومن ثم كنا نقوم بصنع النظام الشمسي من الخضار.

أو تطلب مني أمي أن أخمن كم الباقي الذي يجب أن نحصل عليه عندما نقوم بدفع الحساب في المتجر، وكنت أقول، «سبعة دولارات وستة وثمانين سنتاً.»

وكانت المرأة العاملة على آلة تسجيل النقود تقول لأمي، «إنها ذكية جداً.»

وكانت أمي تقول، «هممم ...» مع ابتسامة من طرف واحد فقط من فمها.

لقد كان ذلك يعني أننا كنا نقرأ ونتحدث عن الصخور التي في وادينا وعلى الجبل، وكيف أنها موجودة منذ زمن طويل جداً، وأنها تتغير ببطء، وأنها كانت هنا قبلنا بفترة طويلة، وستبقى بعدنا، أيضاً. بعد ذلك، عندما أذهب وأضع خدي على الصخرة الكبيرة التي تبرز من جانب الجبل، وأشعر بدفئها يسري في جسدي، كنت أصغي بانتباه إلى صوتها. وعندما سمعته، في نهاية المطاف، كان مثل همهمة لطيفة ومنخفضة استمرت واستمرت، طوال الوقت. وكل تلك الأشياء التي تعلمتها عن الصخور كانت منطقية، في رأسي ... في داخلي، أيضاً.

إن التعلم في المنزل كان يعني أنني لم أكن مضطرة إلى الركوب في حافلة قديمة ذات رائحة كريهة وأنا معصورة داخلها، أو أن أجلس ساكنة في غرفة فاسدة الهواء طوال اليوم. لقد كانت أمي تجعلني أقدم امتحاناً في كل سنة، وفي كل سنة كنت أنجح نجاحاً باهراً جداً. وكان يتعين علي أن أبقى بالضبط في أكثر مكان كنت أحبه: أبقى مع أمي وأبي، وروفوس ولولو، والأشجار والجبل والأفاعي والعصافير. طوال اليوم، وكل يوم.

كانت تبدو كما لو كانت الخطة الأفضل في العالم بالنسبة لي.

الفصل 6

عندما كنت في الخامسة من عمري، ذهبت إلى المدرسة لمدة أسبوعين وثلاثة أيام، وكنت في صف الروضة عند الآنسة مايرز في مدرسة إيرنست بي. لوسن الابتدائية.

لقد كان للسيدة مايرز خصلاً متموجة بنية جميلة حول وجهها، وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة - سعيدة، حيث يرتفع أطراف فمك، ولكن عينيك تبدوان مغتمتين طوال الوقت، تقريباً.

وفي اليوم الأول من المدرسة، وقفت في المدخل، وقالت، «مرحباً» لنا جميعاً عندما دخلنا. وأخبرت كلاً منّا أن يجد لنفسه مقعداً في الدائرة الكبيرة التي كانت على الأرض. وقد فعلت ذلك.

وبعد أن جلس الجميع، أحضرت كرسياً وجلست عند أعلى الدائرة وقالت، «صباح الخير للجميع. أنا معلمتكم، الآنسة مايرز. وأول شيء يجب أن أفعله هو البدء بمعرفة أسمائكم، لذا عندما أنادي اسمك، أرجو أن ترفع يدك وتقول 'هنا،' اتفقنا؟»

أومأنا جميعنا بنعم.

كانت الأولى هي إيما آرنسون، التي، عندما تكون في الكنيسة، تجعل فمها يتحرك كما لو كانت تغني، سواء كانت تعرف الأغاني أم لا تعرفها.

وقالت إيما، 'هنا.'

قالت الآنسة مايرز، «صباح الخير يا إيما.»

وردت إيما بـ«صباح الخير» على الفور.

وكانت التالية «آيدا آبلوود»، ونظرت الآنسة مايرز حول لدائرة لترى من الممكن أن تكون تلك.

قلت، «هنا»، ولكنني لم أرفع يدي سوى نصف رفعة، وذلك لأن ذلك كان جزءاً واحداً فقط من اسمي.

«صباح الخير يا آيدا.» وابتسمت الآنسة مايرز وبدأت لبحث عن الاسم التالي في قائمتها.

ولكن قبل أن تتمكن من الانصراف عني أخبرتها، بحيث نتمكن من تصحيح الأمر على الفور، «إنه آيدا بي.»

رفعت الآنسة مايرز عينيها، مع بضعة تجاعيد بين عينيها.

«عفواً؟»

كررت، «إنه آيدا بي، اسمي هو آيدا بي.»

حدقت بقائمتها مرة أخرى مع تعبير ينم عن تأمل عميق وبعض الاستياء. ولكن بعد بضع ثوان، تلك النظرة، التي يبديها

الأشخاص الهادئون والفرحون بالتأكيد عندما يكتشفون أنهم على حق وأنهم يتوقون لإخبارك كل شيء عن الأمر، انتشرت على وجهها.

وقالت لي، «والآن يا آيدا. أعرف أن عائلتك في المنزل قد ينادونك باسم تحبب، مثل 'آيدا بي'. وذلك شيء لطيف في المنزل، ولكن في هذا الصف، سوف نستخدم أسماءنا الأولى وليس أسماء التحبب.» ثم حدقت حول الدائرة بتلك الابتسامة الحزينة - السعيدة. «هل يفهم الجميع ذلك؟»

وأومأ جميع الأطفال برؤوسهم وابتسموا لها إلا أنا.

وقالت، «والآن، دعونا نكمل.»

وكان التالي «صاموئيل بارتون»، ولكنني علقت هناك في الوراء عند « آيدا آبلوود،» وبقيت هناك طوال سرد قائمة الأسماء وجمل «صباح الخير» بكاملها.

ولأننا في أي مكان في العالم تواجدنا فيه في أي وقت، كانت آيدا آبلود هي أمي. وفي أي وقت كنت فيه مع أشخاص لأكثر من البرهة القصيرة التي يستغرقها الأمر للتعرّف على كل شخص، كنت أنا آيدا بي.

لذا، فقد كنت أتساءل وأقلق بشأن كيف كان رأسي سيرتفع أو أقول «نعم يا سيدتي،» في أي وقت تنادي فيه الآنسة مايرز «آيدا،» [illegible] بالي مشكلة أكبر حتى من ذلك.

لقد أدركت أنه ربما أن الحصول على هذا الاسم الجديد الذي لم يكن اسمي، لن يكون لليوم فقط أو لهذه السنة، وإنما قد يكون الاسم غير الحقيقي والذي لا يشبهني في أي شيء ولكنني علقت به لكل يوم من أيام المدرسة لبقية حياتي. وقد عرفت أن ذلك كان يعني عدداً كبيراً من الأيام التي سأكون فيها آيدا، وليس آيدا بي. الكثير جداً من الأيام التي سأكون فيها آيدا بحيث ربما أنسى كيف كان يبدو أن أكون آيدا بي.

وبذلك التفكير، اجتاحني شعور سيء بدأ في معدتي وانتقل إلى رجليّ وذراعيّ، وانتهى في أصابع قدميّ وأصابع يديّ، وحتى في لساني، مثل أي شيء يتم ضغطه وتقليصه وعصره داخل حيز صغير جداً جداً.

نظرت خارج النافذة ورأيت كل تلك الأشعة الشمسية والهواء والمساحة للتحرك، وأقسم بأنني كنت أسمع الغدير يناديني، عبر تلك المسافة ومن خلال تلك النوافذ المغلقة. «عودي إلى المنزل والعبي يا آيدا بي. إنني أنتظرك. هيا، هيا، هيا.»

لقد اجتاحني توق شديد للخروج من تلك الغرفة، والذهاب إلى الخارج، وترك ذلك الصوت يقودني إلى المنزل. ولكنني وعدت أمي تسع مرات في ذلك الصباح فقط، بأنني سأكون فتاة جيدة وأتبع التوجيهات. لذا، فقد جلست في مكاني في الدائرة ويداي في حجري.

ومع ذلك فقد بقيت أفكر بأن ذلك لا يمت بأي صلة لما أخبرني به أبي وأمي عن كيف ستكون المدرسة، وكنت أعتقد أن تلك لم تكن علامة جيدة.

لقد كان هناك أرنب في قفص داخل الغرفة، ولكن لم يكن بإمكاننا أن نداعبه حتى يحين الوقت المحدد لذلك. وكانت هناك كتب على الرفوف، ولكن لم يكن بإمكاننا أن نقرأها حتى يحين الوقت المحدد لذلك. وكان هناك ملعب كبير فيه زحاليق ومراجيح وكرات، ولكن لم يكن بإمكاننا اللعب فيه حتى يحين الوقت المحدد لذلك. وكان هناك الكثير من الأطفال، ولكن لم يكن بإمكاننا أن نتحدث معاً إلى أن نعرف متى نتحدث.

وسألت أخيراً، «الآنسة مايرز، متى يكون 'الوقت'؟»

«عفواً؟»

«متى يكون 'الوقت' لجميع الأشياء المرحة؟»

قالت، «حسناً يا آيدا، هناك أوقات مختلفة لأشياء مختلفة. سوف أخبركم عندما يحين الوقت لكل شيء. لماذا لا تسترخين فقط وتستمتعين بهذا اليوم.»

والآن، حتى عندما كنت صغيرة، كنت أحب أن أضع خططاً. لقد أردت أن أعرف ما هو القادم بحيث يمكنني أن أبقى بعيدة عن الأشياء السيئة قدر الإمكان، وأن أستعد للأشياء الجيدة.

فسألت، «هل يمكنك أن تخبريني بحيث أستطيع أن أضع جدولاً زمنياً؟»

حسناً، خلال ثانية ونصف الثانية كانت الآنسة مايرز تقف من فوقي تماماً. لقد كان فمها مستقيماً، ويداها على وركيها، وقد

رأيت تلك النظرة على وجوه الكبار من قبل، ولم تكن أبداً تعني أي شيء جيد.

وقالت لي، «آيدا، ثقي بي. سوف نتحدث عن جدول زمني عندما يحين الوقت لذلك.»

وعادت تلك الكلمات من جديد. بعد ذلك بالضبط كنت أتساءل ما إذا دخلت في صف مخصص للأطفال السيئين الذي كانوا بحاجة إلى إصلاح، وأن عقابي كان يشتمل على فقدان اسمي، وأن لا أكون قادرة أبداً على وضع خطط مرة أخرى. ولكن إيما آرنسون كانت في الصف، أيضاً، وهي تتصرف بشكل جيد جداً كل دقيقة من كل يوم.

كان بإمكاني أن أشعر بأن هناك شيئاً من الوقاحة والمشاكسة يغلي بشدة ويصعد إلى حنجرتي ويكافح للخروج من فمي. ولكنني وعدت أمي، أيضاً، سبع مرات، عندما كنا قادمين بالسيارة إلى المدرسة، بأنني سأكون مؤدبة.

وقلت أخيراً، «نعم يا سيدتي،» من خلال أسناني لأنها كانت تبقي الوقاحة داخل فمي.

وبعد ذلك قمت بوضع جدول زمني لبقية اليوم بالمعلومات القليلة فقط التي كنت أعرفها بشكل مؤكد: كيف ستبدو الساعة عندما يحين موعد الذهاب إلى المنزل. بقيت أحدق في الساعة المعلقة فوق الباب، وأراقب العقرب الصغير وهو يقترب أكثر وأكثر إلى الثالثة، إلى أن قرع جرس الانصراف.

كانت أمي تنتظرني عند ناصية موقف السيارات في نهاية اليوم، وكانت ترتسم على وجهها ابتسامة عريضة.

والآن، آيدا بي الحقيقية كانت ستبتسم ابتسامة عريضة وتركض لملاقاتها. وكانت آيدا بي ستقفز داخل الشاحنة، وتتنطط كالكرة فوق المقعد خمس مرات، وتخبر أمي عن خططها لفترة ما بعد الظهيرة، والتي ستجعلها منشغلة جداً عن القيام بالكثير جداً من الأعمال اليومية، وكانت ستركب في الشاحنة طوال الطريق إلى المنزل وجبهتها ملتصقة بزجاج النافذة، فهي تتوق جداً للوصول إلى هناك.

ولكن لقد كنت آيدا طوال اليوم، آيدا الخاصة بالآنسة مايرز، والتي جلست ساكنة وبقيت في الطابور، ولم تقم بإيذاء أحد، ولم تحصل على أدنى متعة. لقد كنت أشعر بتيبس وتعب وبأنني كنت محشورة داخل جسم صغير جداً واسم صغير جداً. لذا فقد كنت أمشي بخطوات بطيئة وصغيرة نحو أمي.

وعندما اقتربت أخيراً منها، توقفت ورفعت نظري إليها، وقلت، «أمي، هذا لن يكون مجدياً.»

فسألت، «ما الذي لن يكون مجدياً يا آيدا بي؟» وعندما قالت اسمي كان ذلك كما لو أنني عدت إلى نفسي للمرة الأولى في ذلك اليوم. لقد شعرت بأن جسدي يتراخى ويرتعش، كما لو كان يصحو.

وقلت لها، «الكثير جداً من القواعد، ولا وقت كاف للمرح.»

قالت، «حسناً، لنركب في الشاحنة ويمكنك أن تخبريني عن الأمر.»

عندئذ قفزت نصف قفزة تقريباً إلى داخل الشاحنة. وفي الطريق إلى المنزل، أخبرت أمي عن اليوم: عن خصل شعر الآنسة مايرز المتموجة الجميلة، وابتسامتها الحزينة - السعيدة، والجدول الزمني غير المرئي الذي يفرض عدم السماح للأطفال بمعرفة أي شيء حتى يحين الوقت المحدد لذلك، وأهم شيء عن رفض الآنسة مايرز استخدام اسمي الحقيقي، وقد استغرق ذلك مني تقريباً الطريق كلها إلى المنزل لأقول كل ما لدي.

وعندما انتهيت، فكرت أمي للحظة، ثم قالت، «آيدا بي، يبدو أنه يوم عصيب. ولكن هناك دائماً الكثير مما يجب القيام به في اليوم الأول، وعادة لا يكون هناك الكثير من المرح في الأيام الأولى. وأنا متأكدة من أن الغد سيكون أفضل بكثير.»

وعندما توقفنا في نهاية الطريق إلى المنزل، نظرت إلى أمي، وقلت لها، «إنني أشك بذلك إلى حد كبير.»

ولكنها نظرت إلي وقالت، «أعطِ الأمر محاولة أخرى، يا صغيرتي.»

لقد كان من الرائع أن أكون في المنزل، مع روفوس ينبح ويركض في دوائر، ومادة لزجة تتناثر من فمه في كل مكان، بحيث تحتاج إلى مظلة لتمشي إلى المنزل، والتفاح آخذ بالنضوج بحيث يمكنك شم رائحتها في الهواء، وأمي تبتسم في وجهي بكل ثقة، وقلت، «حسناً يا أمي.»

ولكن هذا هو ما كنت أفكر فيه بداخلي: بالرغم من أنني أتمنى بالتأكيد أن تكوني على صواب، فإن لدي شعوراً سيئاً جداً بشأن ذلك المكان.

الفصل 7

بالضبط كما خمنت، لم تتحسن الأمور أبداً. وإن كان قد حدث شيء ما، فإنها قد أصبحت أسوأ، وذلك لأنه ليس فقط لدينا كل تلك القواعد بشأن عدم الكلام وعدم اللمس، وإنما كان من المفترض أن نتحسن كل يوم في اتباعها. وفي كل يوم كنت أصبح أبطأ وأبطأ في العودة إلى نفسي بعد أن ينتهي دوام المدرسة.

وكنت أسأل أمي ونحن في الشاحنة، «كم يوم بقي حتى آخر يوم في المدرسة؟»

«لا أعرف يا آيدا بي. لماذا؟»

«أريد أن أعرف فقط.»

«كم يوم بقي حتى أنتهي من المدرسة للأبد؟» كان كل ما استطعت أن أجعل فمي ينطق به وقت وجبة العشاء.

وقال أبي، «آيدا بي، لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء.»

وهذا هو مدى ما كنت أشعر به من اكتئاب: لم أرد بأي شيء.

وفوق ذلك، كنت أخرج في كل ليلة بعد تناول وجبة العشاء وأستلقي في البستان إلى أن يُنادى علي لأدخل إلى المنزل.

وكانت فيولا تسألني، «ما الأمر يا آيدا بي؟»

وكنت أقول لها، «لا شيء.» لأنه لم يكن لدي ما يكفي من أي شيء في داخلي حتى لأشتكي.

وكان بإمكاني أن أسمع بولي تي يقول بضحكة نصف مكبوتة، «كيف تسير الأمور في المدرسة يا آيدا بي؟» لأنه كان وقحاً منذ البداية.

ولكن حتى بولي تي لم يتمكن من جعل الأمور أسوأ من الأسوأ.

حسناً، أعتقد أنني أصبحت أبدو متراخية وبائسة بحيث قررت أمي أنها تريد أن ترى بالضبط ما الذي كان يحدث في صف الآنسة مايرز. لذا، حضرت معي في الأسبوع الثالث من المدرسة، وقامت بزيارة ليوم واحد. وعلى الرغم من أنه كان هناك ذات الاصطفاف وعدم الكلام وعدم اللمس وانتظار دوري كما هو الحال دائماً، فقد كان الوضع أفضل مع وجود أمي هناك.

ومع ذلك، فقد بدا أنه كان للمدرسة التأثير ذاته عليها كما كان عليّ، وذلك لأننا في نهاية اليوم مشت كلتانا بخطوات بطيئة ومتيبسة إلى الشاحنة، ولم تنطق أي منّا بكلمة طوال الطريق إلى المنزل.

وعندما وصلنا إلى المنزل، قالت أمي، «يمكنك أن تجدي شيئاً تفعلينه حتى وقت العشاء.»

وكنت أقول، «حسناً،» لأنني كنت أعرف عندما يكون هناك شيء يتدبّر، وكان من الأفضل أن أبقى هادئة جداً.

جلست على الشرفة، وكان بإمكاني رؤيتها وهي تذهب للبحث عن أبي في الحقل، ووقفا هناك يتحدثان لبعض الوقت.

وفي صباح اليوم التالي، كنا جميعنا نجلس لتناول وجبة الفطور، وكنت على وشك البدء بتناول فطوري عندما قالت أمي، «آيدا بي، أنا ووالدك نريد أن نتحدث إليك بشأن المدرسة.»

هكذا بالضبط، انغلقت معدتي كما ينغلق الفخ، وحدقت بكل حبات الزبيب الصغيرة تلك التي اعتادت أن تبدو سعيدة وهي تهبط وتصعد في كل مكان كما لو كانت تسبح، ولكنها تبدو الآن كما لو كانت تغرق في بحر من الحليب.

وقالت أمي، «أنظري إلي يا آيدا بي، بدئاً من يوم الاثنين، ستذهبين إلى المدرسة هنا، في المنزل، وسأقوم مع أبي بتدريسك. والآن، سنقوم بالحصول على معلومات بحيث يمكننا أن نفعل ذلك بشكل صحيح. ولكننا نعتقد أننا قد علمناك أصلاً كل شيء كنت بحاجة لمعرفته حتى الآن، وقد كنت تتقدمين بشكل جيد. لذا، فإننا سوف نحاول.»

كيف كنت أبدو في ذلك الحين بالضبط؟ لا بد أنني كنت أبتسم، ولكن لم يكن بإمكاني الإحساس بوجهي أو بجسمي. لقد كنت أسمع ما قالته أمي مزاراً وتكراراً، وكنت أطفو أعلى وأعلى، وكانت الموسيقى تعزف والملائكة تغني، «آيدا بي حرة، آيدا بي حرة. تعالي وحلقي معي يا آيدا بي.»

ولكن قبل أن أطير في الأثير، سحبتني إلى الأرض فكرة ثقيلة. فقد قال صوت في رأسي، أن هذا الأمر رائع إلى درجة لا يمكن معها أن يكون حقيقياً، وهو الصوت ذاته الذي كان يرى كل تلك الهدايا في عيد الميلاد ويعرف أن بعضها هو عبارة عن جوارب وملابس داخلية ملفوفة داخل علب جميلة.

«مستحيل يا أمي،» هو ما قلته لها وأنا أتوق لتصديق ما سمعت، ولكن بدون ترك آمالي تذهب بعيداً.

وتابعت قائلة، «لا تظني أن ذلك سيكون سهلاً يا آيدا بي. سيتوجب عليك أن تتعلمي الرياضيات والقراءة، تماماً مثل المدرسة العادية. ستكون هناك امتحانات والكثير من العمل، وسيتعين عليك أن تفعلي الأشياء التي نخبرك عنها أنا ووالدك. وإذا لم نثابر ونحقق ما يفترض علينا أن نحققه، ستضطرين إلى العودة إلى المدرسة لتتعلميه في تلك المدرسة، هل فهمتِ؟»

كانت أمي تنظر إلي كما لو كنت هناك أمامها تماماً، ولكنني كنت أحلق مرة أخرى، لأنني كنت أعرف أنني طالما كنت مع أمي وأبي، وكنت بجوار الجبل والبستان والغدير، فإن كل شيء سوف

يكون على ما يرام. وطالما كان بإمكاني أن أكون آيدا بي، فإنني سأكون على ما يرام.

سمعت نفسي تسأل، «هل هذا حقيقي؟» وكنت أحلّق فعلياً كل المسافة نحو السقف.

وقالت أمي، «حقيقي، إذا فعلت ما يفترض أن تفعليه.»

أجبت، «لا مشكلة.» ولكنني كنت في ذلك الحين أحلق في الغيوم بحيث لا أعرف ما إذا كانت قد سمعتني.

وهكذا سارت الأمور لمدة أربع سنوات، وكان الوضع أروع من رائع. وقد بقيت في المنزل وتعلمت وكنت أستمتع أكثر من قطة صغيرة لديها عشرون كرة من الخيوط وثلاثة فئران غير حقيقيين. لقد بدأت أصدق أنه كان بإمكاني أن أعتمد على عدم العودة أبداً مرة أخرى إلى مكان التعذيب ذلك بالذات، والذي يسبب للجسم تصلباً بطيئاً ولكنه أكيد، ويشلُّ الدماغ، ويقتل المرح.

وأود أن أقول إن ذلك كان خطأ.

الفصل 8

في الصباح أكون مثل أفعى في فصل الربيع: أحتاج إلى الاستلقاء في الخارج على حجر دافئ وأدع الشمس تغوص داخلي لفترة قصيرة قبل أن أبدأ بالتلوّي والمضي لمواصلة عمل ذلك اليوم. ولكن أمي وأبي ليسا مثل ذلك أبداً. إنهما مثل العصافير: ينهضان قبل أن يكون الضوء قد بزغ، ويغنيان ويتنقلان بسرعة في كل مكان بمجرد أن يفتحا أعينهما.

في الصباح، بعد ثلاثة أيام من قيام ذلك الوقح بولي تي بإخباري بتحذيره، الذي لا يمكن الوثوق به ولا حتى في مليون ونصف المليون سنة، بشأن وجود متاعب تتجه نحوي، لم يكن هناك أي شيء من الزقزقة والتنقل بسرعة المعتادَين من أمي وأبي.

في ذلك اليوم، كانت بعض الأشياء فقط تجري مثل المعتاد. كنت مستيقظة، ولكن بصعوبة. والأشياء الوحيدة التي تتحرك كانت ذراعي الأيمن وفمي. وكانت *خذي الشوفان وضعيه في فمك، وامضغيه، امضغيه   خذي الشوفان وضعيه في فمك،*

وامضغيه، امضغيه هي الرسالة الوحيدة التي كان يرسلها دماغي، وحتى ذلك كان بسرعة بطيئة وبصوت منخفض.

ولكن فجأة، كان بإمكاني الشعور بأن دماغي يزيد سرعته إلى سرعة الطواف، أسرع مما كان يفعل في أي وقت عند الساعة السادسة صباحاً، ولم يكن ذلك بسبب أي شيء كان أبي وأمي يقولانه أو يفعلانه. لقد كان ذلك لأنهما كانا صامتين وهادئين، وقد عرف دماغي أن ذلك كان غير عادي، وغير سوي بكل وضوح. أحسست بوخز خفيف أسفل عمودي الفقري، وطعم غريب في فمي، وفي غضون ثانية ونصف الثانية من الوقت، كنت مستيقظة تماماً، وأراقبهما عبر الطاولة من مكاني.

لم تكن أمي تتكلم ولم تكن تأكل، لقد كانت تجلس هناك فقط، تعبث بطعامها، وهو ما يفترض أن لا نفعله.

ولم يكن أبي يأكل، كذلك. لقد كان فقط يحدق في صحنه.

وبعد ذلك، قال أبي، بصوت منخفض جداً، «إذن سوف تطلبين الطبيبة وتأخذين موعداً اليوم؟»

قالت له، «نعم.»

وابتسمت أمي في وجه أبي وهي سعيدة جداً، وبسرعة كبيرة. «ربما ليس هناك شيء يدعو للقلق بشأنه، يا إيفان.»

وقال أبي، وهو يضع يده فوق يدها، «أعرف، ولكن لم يرفع عينيه لينظر في عيني أمي، بل استمر بالنظر إلى أطراف أصابعه وهي تبرز من تحت يده الكبيرة.

وخيم صمت في ذلك المطبخ كما لم أسمع مثله من قبل، وكأن العالم كله قد توقف. وعرفت أنني إذا خرجت في ذلك الوقت تماماً، فإنه لن تكون هناك رياح، وستكون النباتات قد توقفت عن النمو، وستكون الشمس قد تجمدت في السماء.

وكنت على وشك أن أصرخ، «ما الذي يجري؟ ما هو لا شيء؟» لأنه كان لا بد أن يحدث شخص ما فوضى كافية لجعل الأمور تتحرك وتعود لتكون على ما يرام مرة أخرى.

نظر أبي وأمي إلي كما لو كنت مفاجأة.

وقالت أمي أخيراً، «ليس هناك شيء يدعو للقلق بالنسبة لك، يا حبيبتي.» وكان أبي ينظر خارج النافذة.

فكررت، «ما هو لا شيء؟» لأن ذلك النوع من الإجابات عادة ما يعني أن هناك أكثر من الكثير مما يدعو للقلق بشأنه، ولكن ليس هناك الكثير الذي يمكن فعله. «لماذا أنتما حزينان؟ ما الذي يجري؟»

ولكن أمي قالت فقط، ببطء وحزن، مثل الرياح في يوم ماطر، «آه يا آيدا بي.»

ثم نهضت ، ومسحت صحنها، وذلك ما كان.

وهذا هو الشيء السيئ بأن يكون المرء أفعى في الربيع: في بعض الأحيان تجد ما تعتقد أنه المكان الأفضل في العالم لتحصل فيه

على حمام شمسي. إنها الصخرة الأكبر على الإطلاق، وطويلة بحيث لا يمكنك رؤية أين تنتهي. وهذه الصخرة الرائعة، والجيدة جداً لدرجة أنك لا تصدق تقريباً أنها حقيقية، تكون ملساء وقاتمة اللون ودافئة بشكل لطيف. وتنزلق على لونها الأسود الدافئ المستكين، وبشكل سريع إلى حد ما تشعر بالدفء والسرور وأنت مستلق هناك لدرجة أنك تغط في النوم، وأنت ممدود وتصدر صوت شخير حتى. إنك على يقين من أنك في جنة الأفاعي.

ولكن، لكونك أفعى، فأنت بطيء جداً على الأرض ولا يمكنك أن ترى أن تلك القطعة من فردوس الصخور التي تستلقي عليها هي في الواقع طريق. إنك في وضع سلس ومريح للغاية، وتنام بعمق بحيث لا يمكنك أن تسمع أن هناك شاحنة قديمة كبيرة، تنقل طنين من البندورة، تقترب منك أكثر وأكثر.

والشيء التالي كما تعلم - *تصدُّع وقطعة خشب مسطحة* وبضعة أصوات ارتطام أيضاً - وهناك آثار إطارات على كل جنب من جنبيك. وأنت لست متأكداً تماماً ما الذي حدث، ولكن فجأة تكون في الواقع قد رحلت عن هذا العالم.

لذا، فقد تعلمت أنه حتى عندما تعتقد أنك في الجنة، فإنه يتعين عليك أن تبقى متنبهاً ولديك خطة.

ومع ذلك، فإن هناك بعض الأشياء التي من الصعب جداً أن تضع خططاً لها.

الفصل 9

كان يوجد ورم عند أمي. وكان يوجد سرطان داخل الورم.

لقد كان ذلك هو اللاشيء الذي لم يكن لا شيء، ولكن لم يكن الأمر يبدو في البداية كأنه كل شيء مرعب. لقد كان يبدو مثل ذلك النوع من الأشياء كقطعة النقود العالقة داخل أنفك: يجب أن تخرجها لأن مكانها ليس هناك، وإذا تركتها هناك لفترة طويلة، فإنك ستعاني من أوقات صعبة فظيعة جداً عندما تصاب بالبرد. لذا، فإنك تذهب إلى الطبيبة، وتقوم بإخراجها بسرعة كبيرة، وسرعان ما تنسى كيف كان شعورك عندما كان أنفك ممطوطاً ومحشواً ومتورماً. هكذا كنت أعتقد أن الأمر سيكون بالنسبة لذلك الورم.

ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لأمي. فقد ذهبت أولاً إلى الطبيبة، وبعد ذلك، كان يتعين عليها أن تذهب إلى المستشفى من أجل إجراء عملية. ومن ثم، لم يكن السرطان داخل الورم فقط، وإنما تحت ذراعها، أيضاً. وقد أمِل الأطباء أن يكونوا قد استأصلوه كله، ولكن لم يكن بإمكانهم الجزم بذلك.

لقد كان السرطان مثل البق في شجرة ما: لا تراهم في أحد الأيام على الإطلاق، وفي اليوم التالي يبدو وكأنهم في كل مكان، يأكلون الأوراق والثمار. ولن يجدي نفعاً أن تجدهم وتسحقهم واحدة تلو الأخرى. يجب عليك أن تفعل شيئاً ما حاسماً.

وهكذا، كانت أمي تذهب إلى المستشفى من أجل تلقي العلاج، وعندما كانت تعود إلى المنزل، كانت تكون مرهقة جداً، وكان عليها أن تبذل جهداً لتقول، «مرحباً، يا صغيرتي.»

وبعد ذلك كانت تدخل إلى غرفتها وتستلقي على السرير. وإذا ذهبت لساعة من الزمن، أو نحو ذلك، وعدتَ، فإنك ستجدها بالضبط كما هي: مستلقية على ظهرها، وعيناها مغلقتان، ووجهها أبيض بلون الحليب، ويداها تمسكان بقوة بغطاء السرير.

كنت أقترب من طرف سريرها وأربت على خدها، وكانت تئن «آآآه،» عندما كانت أصابعي تلمس برفق جلدها بلمسة أخف مما تفعله عندما تدلل قطة صغيرة. لذا، فقد توقفت عن لمسها، ولكنني كنت أسألها ما إذا تريدني أن أقرأ لها.

وكانت تقول، «لا شكراً يا حبيبتي،» وشفتاها بالكاد تتحركان.

هل كانت تريد أن تأتي لولو لزيارتها؟

«ربما في وقت لاحق.»

هل كانت تريد مني أن أتهجأ «مفعم بالحيوية»؟

«ليس الآن يا حلوتي.»

وذات مرة قلت بهمس، «أمي،» عندما كانت كِلتانا صامتتين لفترة طويلة.

ردت، «هممم،» كما لو كانت تجيبني من داخل حلم.

سألتها بصوت منخفض جداً لدرجة أنني بالكاد كنت قادرة على سماع نفسي، «هل ستموتين؟»

فتحت أمي عينيها وأدارت رأسها نحوي، وقالت وهي تنظر إلي بشكل جدي أكثر من أي وقت مضى، «آيدا بي.»

أجبت، «نعم يا أمي،» ولكن لم أتمكن من النظر إليها، لذا فقد أخذت أحدق بالتحدبات التي شكّلها مفرش السرير.

قالت لي، «سأكون دائماً معك، دائماً.»

بعد ذلك أدارت وجهها مرة أخرى إلى السقف، وأغلقت عينيها، وقالت، «هل تفهمين يا صغيرتي؟»

وقلت، «نعم يا أمي،» على الرغم من أنني لم أفهم.

بعدئذ، جلست إلى جانبها فقط وأخذت أراقب نفَسَها لأطمئن من أن بطنها كان لا يزال يصعد ومن ثم يهبط.

بدأ شعر أمي يتساقط بخصلات كبيرة على وسادتها، وكنت أدخل إلى غرفتها وأجمعه عندما كانت تنهض من السرير لفترة قصيرة. كنت أضعه في حقيبة آيدا بي للأشياء المتنوعة من أجل

خطط لم يتم تحديدها بعد، ولكن لم يكن هناك شيء سوى شعر أمي. احتفظت بتلك الحقيبة تحت وسادتي، وإذا وضعت يدي بداخلها وأغمضت عيني، كان بإمكاني التظاهر بأنني كنت أحلق داخل غيمة من أمي.

بعد أن تكون أمي قد تلقت العلاج، كان بيتنا يصبح هادئاً كهدوء مكتبة لا يوجد فيها سوى أشخاص كبار. وكأنما كان هناك «ششششش» متواصلة تسكتنا طوال الوقت، في كل غرفة.

أصبحنا نمشي ولم نعد ننظر مباشرة إلى بعضنا البعض كما كنا نفعل في السابق. كان أبي ينظر إلى الأسفل، وكنتُ أنظر إلى الأسفل، وحتى روفوس كان ينظر إلى الأسفل. ولكن ليس لولو. لقد كانت تحملق في وجوهنا بشكل مباشر كما لو كانت تقول، «أياً كان ما يحدث، كنت أود أن أحصل على طعامي قبل خمس دقائق.»

وقد أصبحنا نضع الصحون بهدوء في المغسلة. ونسحب كراسينا من تحت الطاولة بحذر شديد، ونمشي على الأرض بخفة شديدة. لا أعرف ما إذا كنا نحاول أن لا نوقظ أمي أم نحاول أن لا نوقظ السرطان.

وعندما كان هناك متسع من الوقت، كنت وأبي نجلس معاً في كرسي كبير، بحيث نكون قريبين جداً من بعضنا البعض بما يكفي لنتمكن من التحدث بهمس مع بقائنا قادرين على أن نسمع بعضنا، ونقرأ قصصاً. وكانت تلك تقريباً الأوقات الممتعة الوحيدة في المنزل حينئذ. وبعد ذلك، كان أبي يذهب ليعرف ما إذا كانت أمي ترغب في تناول بعض الحساء، أو ربما بعض البسكوت المالح.

وكان يقول عند مدخل الباب المؤدي إلى غرفتها، «هل تريدين أن تأكلي شيئاً يا آيدا؟» وكان صوته ناعماً مثل نعومة فراء الأرنب، وخفيفاً مثل الدخان. كان يحلق إليها ويلمس خدها، ومن ثم جبهتها، ولكنه لم يكن يضغط بشكل قوي جداً.

وكانت أمي تهمس في معظم الوقت، «لا، شكراً يا حبيبي.» ولكن في بعض الأحيان، كانت تقول فقط، «إيفان،» بصوت حب كان يبعد ألف ميل.

كانت أمي تتلقى العلاج، وكانت الأمور تصبح الأسوأ على الإطلاق.

ولكنها بدأت، شيئاً فشيئاً، تتحسن إلى أن أصبحت قريبة جداً من أن تكون أمي التي أعرفها من جديد.

وقد بدأت تتناول الطعام وتعمل مع أبي قليلاً، وتسألني، «آيدا بي، إذا كنا نحتاج إلى كأسين ونصف من الدقيق لنخبز فطيرة، وأنت تقومين بخبز فطيرتين في الأسبوع لمدة سنة، باستثناء أسبوع عيد الميلاد حيث تخبزين خمس فطائر، كم عدد أكواب الدقيق التي تحتاجينها؟»

وكنت أسأل، «فقط مرتين في الأسبوع، يا أمي؟ ألا يمكن أن تكون ثلاث مرات؟» وكانت غالباً ما تبتسم، تماماً كما كانت تفعل من قبل.

ولكن بحلول ذلك الوقت، كانت الأسابيع الثلاثة قد انقضت وعندئذ يكون قد حان الوقت لجلسات علاج أخرى. لقد

كانت كل السعادة، التي ربما ظننت أنه كان من الآمن أن تعود إلى منزلنا، لا بد أن تستدير وتعود من حيث أتت. وحتى البريق الذي كان لدى أمي قد اختفى من عينيها، ولم يكن بإمكاني العثور عليه مهما أطلت النظر إليها.

لذا، فعندما لا يكون أحد منتبهاً، كنت أذهب إلى غرفتي، وأغلق الباب، وأجلس على الأرض وراء سريري، وأبكي وأبكي - من أجل أمي وأبي ومن أجلي، ومن أجل كل الحب الذي بدا وكأنه هباء لأنه لم يستطع أن يشفي أمي.

الفصل 10

في أحد أيام شهر آب/ أغسطس، كان الشعور في المنزل وفي قلبي كئيباً جداً وقاتماً، وقررت أن أحاول التحدث مع تلك الشجرة العجوز مرة أخرى. تركت روفوس في المنزل مع أمي، وصعدت إلى أعلى الجبل، وتسلقت الجذع، وجلست في مكاني المعتاد.

وقلت للشجرة، «أنا لا أقصد أن أشتكي، ولا أريد أن أنتحب، ولكن أمي ليست أمي، وأبي ليس أبي، وأنا افتقدهما، وأفتقد الحياة التي كنا نعيشها، وأنا وحيدة جداً.»

أغمضت عيني، وأسندت رأسي على الغصن الناعم الدافئ الذي كان بجواري. شعرت بتعب أكثر من التعب، لذا فقد كنت سعيدة بمجرد الجلوس هناك لفترة طويلة.

كانت الشمس تسطع على ظهري، والرياح تلامس خدي كما لو كانت أصابع، ما جعل الشعر الذي على ذراعي وخلف رقبتي يقف مستقيماً ويسبب وخزاً، لذا فقد عرفت أن شيئاً ما كان قادماً.

وسمعت ذلك الصوت الذي لم يكن صوتاً عالياً، ولكنك لا تزال قادراً على الاستماع إليه، ولكن ليس بأذنيك. يجب أن تسمعه داخلك.

همس، بطيئاً مثل النوم، وهادئاً مثل الليل، «سيكون كل شيء على ما يرام.» وكان ذلك هو كل شيء.

كانت هناك كرة دافئة داخل بطني، وانتشر الدفء إلى كل مكان داخلي، وشعرت بالحرارة تسري من الداخل إلى الخارج. لقد أصبح كل جزء مني مطمئناً ودافئاً ومتيقناً، ونسيت كل شيء سوى ذلك الشعور بكوني متيقنة جداً.

ومع ذلك، وخلال وقت قصير، فإن ذلك الجزء من جسمي المتشكك في الأشياء التي تبدو جيدة جداً، تذكر بسرعة كبيرة كل المتاعب والحزن الذي كان يحدث في منزلنا. واختفى الشعور المريح الدافئ بسرعة كبيرة.

فتحت عيني، وجلست منتصبة، وقلت بصوت مرتفع، «هل أنت متأكدة من ذلك؟ هل يمكنك أن تخبريني ما الذي تعنيه بـ'على ما يرام'؟»

ولكن ذلك هو حال تلك الشجرة العجوز: تكون محظوظاً إذا حصلت منها على أي شيء؛ وإذا حصلت على شيء ما، فذلك هو كل ما تحصل عليه.

لذا، فقد جلست هناك، وهدَّأتُ نفسي قليلاً، وبعد برهة، تذكرت ما الذي سمعته، وكيف شعرت، وعرفت الإجابة.

نزلت إلى الأسفل، وعندما عدت إلى الأرض، اتكأت على الشجرة، ووضعت وجهي بالضبط داخل جذعها الأبيض العجوز، وقلت، «شكراً لك.»

وبعد ذلك، مشيت نحو أسفل الجبل باتجاه المنزل. لم أكن أشعر بأنني أقل وحدة، ولكن أكثر أملاً بقليل.

وفي وقت العشاء بعد ليلتين، قال أبي، وأمي تجلس هناك، «آيدا بي، إن علاج أمك سيتطلب تناول دواء جديد، لذا، فإنها لن تشعر بأنها بحالة سيئة بعد ذلك. إن أمك سوف تكون أفضل قريباً.»

قالت أمي على الفور، وهي تنظر بحِدّة إلى أبي، «إيفان،» وقالت له، «إن ذلك ليس كله أكيداً،» وأصبح وجهها أكثر وداعة عندما كانت تتكلم. وعندما انتهت، وضعت يدها على يده.

ثم التفتت إلي، «إننا نأمل، يا صغيرتي، أن الوضع سيكون أفضل. سأبدأ بتلقي العلاجات كل أسبوع لفترة قصيرة، ولكن الدواء لن يكون قوياً جداً. من المفترض أن لا أصاب بالغثيان، ومن المفترض أن لا أصاب بإرهاق شديد. ولكن سيكون علينا أن نرى ما يحدث.»

حسناً، باستثناء الجزأين «نأمل» و«سيكون علينا أن نرى ما يحدث»، فإنني أعتقد أن ذلك كان يبدو مثل خبر يستحق إقامة

احتفال، مثل خبر يستحق الحصول على فطيرة وآيس كريم. كان بإمكاني أن أشعر بنفسي أبتسم ابتسامة عريضة لدرجة أن طرفي فمي كانا مرتفعين حتى يصلا تقريباً إلى مقلتي عينيّ. ولكن أمي وأبي ابتساما مجرد ابتسامة صغيرة، حيث ينحني فمك إلى الأعلى من الوسط، ولكن لمنتصف المسافة فقط. لم أتمكن من فهم لماذا لم نكن جميعنا نتجاوز المسار الرئيسي ونتجه مباشرة إلى الحلوى.

«ذلك خبر جيد، أليس كذلك؟»

قالت أمي، «إنه خبر جيد يا آيدا بي.»

فسألت، «إذن ما هي المشكلة؟ لماذا لا نحتفل؟»

ولكنني حصلت على تلك الإجابة القديمة ذاتها، «أوه، يا آيدا بي،» لم يخبرني ذلك شيئاً سوى أن من الأفضل لي أن أتوقف هناك تماماً، وذلك لأنني لم أكن سأحصل على أي شيء آخر.

وكنت ممتنة لنصف السعادة التي دخلت المنزل الذي كان مليئاً جداً بالحزن، لذلك فقد تركت الأمور تسير على طبيعتها.

إن الغدير، كما تعلمون، ثرثار أكثر بكثير من الشجرة العجوز. وقد أقول حتى إنه محبٌّ الحديث.

وفي صباح اليوم التالي، ركضت متوجهة إلى الغدير، وقبل أن يتمكن من البدء بالثرثرة، قلت له، «مرحباً، أمي ستتحسن، وقريباً جداً سيكون كل شيء كما كان عليه تماماً.»

ولكن الغدير لم يرد بأي شيء.

لذا قلت كلامي مرة أخرى، وبصوت أعلى حتى، «قلت إن أمي آخذة في التحسن والأوقات الجميلة باتت قريبة جداً.»

لا شيء بعد.

خلعت حذائي وأخذت أخوض في منتصف المياه، وأركل في كل مكان هناك لدقيقة لأجذب بعض الانتباه. وصرخت، «هيه، هل سمعتني. أمي آخذة بالتحسن، وستعود الأمور إلى رائعة تقريباً في كل مكان هنا قريباً جداً.»

وبعدئذ وقفت ساكنة لأصغي، وكان كل جزء مني بارداً ومبللاً ويقطر ماء.

وبعد دقيقة واحدة، عندما كنت على وشك أن أستسلم، سمعت الغدير يرد، بحزن وهدوء أكثر مما سمعته في أي وقت مضى، «لم ينتهِ الأمر بعد.» وهذا هو كل ما قاله.

الفصل 11

اضطر أبي لبيع جزء من البستان وبعضٍ من الأرض الزراعية لكي يسدد فواتير المستشفى لأمي. وفي أحد الأيام في شهر أيلول/ سبتمبر، أخذني إلى الحظيرة، وأجلسني وروفوس بجانبي، وأخبرني عن الأمر. وقال، «إنهما قطعتا أرض في الطرف الأبعد من الوادي، يا آيدا بي.»

فكرت في ذلك.

وقلت له، في حال لم يكن يعرف عن من كان يتحدث، «ولكن ذلك جزء من البستان. إنه جزء أليس وهاري وبيرنيس وجالك كوستو.»

قال، كما لو كان مستعداً للرد علي، «آيدا بي، لا نقاش في هذا الأمر. هكذا يجب أن يكون الأمر وحسب.»

سألت، «ما الذي سوف يفعلونه بالأرض؟»

«أعتقد أنهم سوف يبنون بيوتاً.»

«أوه لا يا أبي! لا!» وفي أقل من ربع ثانية كنت أبكي وأشهق وأصرخ، كل ذلك في الوقت ذاته. «ألا يمكننا أن نبيع شيئاً آخر؟»

«لا، يا آيدا بي.»

«ألا يمكننا أن نتقل الأشجار؟»

«لا، يا آيدا بي.»

«سوف أحصل وروفوس على وظائف!»

«لا، يا آيدا بي!» وكان صوت أبي يصبح أعلى وأكثر غضباً، أيضاً. «وهذا يكفي!»

والآن لا بد لي من أن أعترف، عند هذه النقطة، بأن ذلك لم يجعلني أكثر هدوءاً على الإطلاق. «وماذا عن الغدير، والجبل، وباقي الوادي؟ لن يقوموا بالبناء هناك، أو اللعب هناك، أو أي شيء آخر، أليس كذلك؟»

قال أبي، «حسناً، لن يكون الغدير والجبل وباقي الوادي ضمن ملكيتهم، ولكن أحب أن نكون ودودين ونتشارك بها لدينا.»

صرخت، «لا، يا أبي! لا!» وطويت ذراعيّ بشكل متشابك وهززت رأسي إلى الوراء وإلى الأمام وعيناي مغلقتان، وضفيرتاي تقفزان في الهواء كما لو كانتا سوطين. وكنت أتمنى لو أن إحداهما قد تعطي أبي صفعة حادة.

تركني أبي جالسة هناك هكذا لفترة قصيرة، وبدأت أشعر بدوار نوعاً ما، ولكنني لم أكن سأدعه يراني أتوقف.

فقال، «آيدا بي، هناك شيء آخر.»

شيء آخر؟ لقد أوقف ذلك الصفع والضرب بسرعة كبيرة. ولكن ماذا يمكن أن يكون هناك أيضاً؟ هل يجب أن أتخلى عن لولو؟ أمي كانت تحتضر بعد كل شيء؟ جلست ساكنة، وعيناي جاحظتان بضع إنشات خارج باقي وجهي، كنت أحاول جاهدة أن أعرف ما الشيء التالي الذي كان سيخرج من فم أبي.

«لا يمكنني أن أهتم بالمزرعة لوحدي وأن أقوم بتدريسك. وأمك متعبة جداً ولا يمكنها فعل الكثير بشأن أي من هذه الأشياء الآن. لذا، فإنه لا بد لك من العودة إلى المدرسة. ابتداء من يوم الاثنين.»

وتابع، «أعرف أن هذا صعب يا آيدا بي،» لأنه، على ما أعتقد، قد توقع أنه لو استمر بالحديث فإنه لن يتمكن من إيقاف الصراخ والبكاء اللذين كانا بالتأكيد سيصدران مني، «ولكن هذا هو ما يجب أن تكون عليه الأمور. يجب أن تتعلمي، وأمك يجب أن ترتاح وأن تتحسن، وأنا يجب أن أعتني بالمزرعة.»

ولكن هذا هو مدى ما أصبت به من صدمة: لم أصرخ أو أتذمر أو أنطق بأية كلمة.

لقد بدأ ما بداخل رأس يدور، وبسرعة كبيرة كان كل شيء حولي يتمايل ويدور. وتحققت مما إذا كانت قدماي لا تزالان مستقرتين على الأرض، لأنني شعرت كما لو كنت أقع في حفرة قد

انفتحت تحتي بالضبط. وشعرت بغثيان في معدتي، وكنت متأكدة من أن غدائي كان سيظهر للعيان مرة أخرى، عندما تذكر دماغي الشيء الوحيد الذي قد ينقذني.

قلت، وأنا أحاول أن أركز على أبي الضبابي والذي يلف ويدور، «أمي لن تدعك تفعل هذا.»

ورد علي، «آيدا بي، إن أمك تتفق معي. هذا هو ما يجب علينا أن نفعله.»

وعندئذ تحول كل شيء إلى ظلام. كان جسمي لا يزال يجلس هناك، وكانت عيناي مفتوحتين على اتساعهما، ولكن نفسي الحقيقية التي تشعر بأشياء وتتكلم وتضع خططاً والتي تعرف بعض الأشياء متأكدة منها بشكل مطلق مائة بالمائة، قد انكمشت وتقلصت على الفور، وذهبت واختبأت عميقاً جداً في داخلي. لم أستطع أن أرى أي شيء سوى السواد، أو أسمع أي شيء سوى نوع من الرنين، وكل ما شعرت به كان فراغاً في كل مكان من حولي.

لم أعرف كم من الوقت جلست هناك على تلك الحال، ولكن بدا ذلك كما لو كان لسنوات وسنوات وأنا وحيدة وأجلس القرفصاء وأختبئ في الظلام.

سمعت أبي ينادي اسمي، وبدا كما لو كان على بعد أميال. «آيدا بي!» كان يقولها مراراً وتكراراً، وعلى الرغم من أنني لم أكن أريد أن أسمعه، لم أتمالك نفسي، فكلما أصغيت أكثر، كان صوت أبي يعلو أكثر، إلى أن نظرت أخيراً خلسة إلى الخارج من داخلي، كما لو

كنت أصحو للتو. ها هو، لقد كان يقف أمام وجهي تماماً، ينطق اسمي ويبدو حزيناً وخائفاً.

وعندئذ، كنت أبكي مرة أخرى، وكان أبي يقف هناك ويقول، «كل شيء على ما يرام، يا آيدا بي. سيكون كل شيء على ما يرام.» ولم يفعل شيئاً سوى أنه جعل الأمور أسوأ بدلاً من أن تكون أفضل.

«أبي،» وأخيراً خرجت مما كنت فيه، بين تنهيدة وأخرى.

«نعم، يا آيدا بي.»

«أرجوك، لا تعيدني إلى المدرسة.»

«آيدا بي، يجب عليك أن تذهبي.»

وتوسلت قائلة، «ولكن يا أبي، لا أريد أن أذهب إلى المدرسة. سوف سوف أقوم بتدريس نفسي، سوف أستعين بالكتب، وسوف أدرّس نفسي. أعدك. سوف، سوف ...» كنت على استعداد لحفظ كل حقيقة مملة عن كندا أو عن أي دولة كان يريدها، في نصفي الكرة الشمالي أو الجنوبي.

«إنك بحاجة لأن تكوني مع أطفال آخرين، بدلاً من التسكع وإضاعة الوقت سدى هنا طوال اليوم.» لقد كان أبي يفقد أي علامة تدل على حزن أو تعاطف، وكان صوته يصبح أعلى وأقسى، ولم يكن يتزحزح.

«لا أريد أطفالاً آخرين. أريدك وأمي فقط وأن أبقى هنا. أرجوك يا أبي، أرجوك.»

حسناً، سأعترف لكم بأنني عند هذه النقطة لم أكن فقط أتوسل بكلماتي، بل كنت جاثية على ركبتي على الأرض، ويداي مقبوضتان ومرفوعتان نحوه، كما يبدو الناس في الصور عندما يتوسلون من أجل الرحمة. ولكن هذا الأب كان عديم الرحمة.

وصرخ، «آيدا بي، ذلك يكفي!» وكان صوته قد ملأ الحظيرة بكاملها. وبمجرد أن بدأ أبي بالصراخ، قفز صوتي عائداً إلى حنجرتي، وتجمد جسمي كله. وأصيب روفوس بخوف شديد، وانتفض كما لو أن صاعقة برق اخترقت جسده. واندفع خارجاً من الحظيرة، واختفى قبل أن تكون كلمات أبي قد ارتدت عن الجدران.

حتى أبي بدا مشدوهاً. أصبحت عيناه كبيرتين، وبعد ذلك أغلقهما بقوة. ووضع يديه على جبهته وتركهما هناك لدقيقة، ومن ثم قام بزلقهما عبر رأسه إلى أن أمسكتا ببعضهما البعض وراء رأسه. وأطلق نفساً كبيراً، كما لو أنه كان يحبسه داخله للأبد، وخيم الهدوء على الحظيرة.

وقال أبي للأرض، وعيناه مغلقتان ورأسه منحنٍ إلى الأسفل، «أمك مريضة وأنا منشغل وأنت سوف تذهبين إلى المدرسة يوم الاثنين. وهكذا سوف تسير الأمور.»

ثم استدار، ومشى خارج الحظيرة، وعاد إلى الحقول وكأن شيئاً لم يحدث.

الفصل 12

بعد أن غادر أبي، كنت أتألم ألماً فظيعاً، كما لو كان قد تم قطع وتمزيق كل جزء مني. ولكن قلبي كان الأكثر تألماً.

لم أتمكن من فعل أي شيء سوى الالتفاف مثل الكرة على أرضية الحظيرة والبقاء هناك، وأنا أبكي. ذلك النوع من الدموع الذي يحرق عينيك، وذلك النوع من الشهقات التي تجعل صدرك يؤلمك بحيث تكون متأكداً بأنه سوف ينفجر. وعندما نفدت الشهقات أخيراً، استمرت الدموع بالانهمار، لذا فقد رقدت هناك وفمي مفتوح بالكامل، ولكنني كنت بالكاد أصدر صوتاً. كان هناك فقط هواء يمر إلى داخلي، وريح قوية مليئة بالأسى تخرج مني.

ولكن أثناء بكائي، كان يجري تحويل قلبي. لقد كان يتحول إلى أصغر وأصغر داخل صدري، ويتصلب ليصبح بقساوة الصخر. وكلما أصبح قلبي أصغر وأصلب، كنت أبكي أقل، إلى أن توقفت في النهاية تماماً عن البكاء.

وفي الوقت الذي انتهيت فيه من البكاء، كان قلبي قد تحول إلى حجر أسود حاد، وكان صغيراً بما يكفي ليتناسب مع كف يدي. لقد كان قاسياً جداً لدرجة أنه لم يكن بإمكان أي شخص أن يكسره، وحاداً جداً لدرجة أنه قد يؤذي أي شخص يلمسه.

بقيت هناك، أحدق إلى الأمام في لاشيء، مع عدم بقاء أي شيء تقريباً في داخلي، لفترة لا بأس بها.

وبعد ذلك، توصل قلبي الجديد إلى قرار. وذلك لأنه عندما يتغير قلبك، فإنك تتغير، ويجب عليك أن تضع خططاً جديدة. لقد كان هذا القرار الجديد لأجل نفسي الجديدة، آيدا بي الجديدة.

وفكرت في نفسي، حسناً يا أبي سوف أفعل ما قلته. سوف أعود إلى مدرسة إيرنست بي. لوسن الابتدائية. ولكن لن أحبها. ولن أحب الأشخاص الذين يشترون الأرض، ولن أحب معلمتي أو الأطفال الذين في صفي، أو الركوب في الحافلة. ولن أحبك أو أحب ماما، أيضاً.

لقد قررت أنني سأفعل أي شيء أضطر إلى فعله، وسأتجنب فقط الموت وتقطيع الأوصال، لأكافح الجنون الذي سلب مني عائلتي وكان يغزو الوادي الخاص بي. سوف أتوصل إلى خطة، وسيندمون، كل واحد منهم، لأنهم اضطروا إلى التعامل مع آيدا بي.

لقد كان بإمكاني الشعور بصلابة قلبي تنتشر إلى ذراعي وساقيّ ورأسي، وكان ذلك يبدو رائعاً. سوف أنتصر.

في تلك الليلة صعدت على الجبل، ووقفت أمام تلك الشجرة البيضاء العجوز العارية. قلت بحلاوة دبقة مثل شراب الذرة، «شكراً جزيلاً لك، لكلماتك اللطيفة الحكيمة في ذلك اليوم. ولا بد أن أعترف بأنني قد أخذتها على محمل الجد.

«نعم،» تابعت، مثل العسل والسكر البني والدِبس ممزوجة معاً، «يجب أن أخبرك بأنني شعرت بأنني أفضل بكثير بعد دردشتنا القصيرة، حتى أنني توقعت أشياء عظيمة ورائعة، أشكرك على طمأنتك لي.» وقفت هناك مبتسمة لدقيقة واحدة لأعطي تلك الشجرة فرصة لتصدق ما كنت أقوله.

بعد ذلك، صرخت، «أنت أيها الشجرة العجوز الغبية!» وركلت جذعها بأقوى ما استطعت لدرجة أن قدمي آلمتني ألماً حاداً، ولكنني لم أتأوه حتى. ونزلت وأنا أمشي مضطربة عائدة إلى أسفل الجبل، وذهبت إلى السرير بدون أن أقول تصبحون على خير لأحد.

وكانت تلك نهاية استماعي لأي شخص أو لأي شيء غير نفسي وقلبي الجديد، لفترة طويلة.

الفصل 13

حدثت الأشياء بسرعة كبيرة بعد ذلك. وفي ليلة الأحد جهزت ملابسي من أجل صباح اليوم التالي: جينز أسود، وقميص قطني أسود، وجوارب سوداء. ولو كانت لدي ملابس داخلية سوداء لكنت ارتديتها، أيضاً. ووضع أبي غدائي في العلبة، وسألتني أمي ما إذا كنت أريد أن أضع شرائط على شعري غداً.

قلت، «لا، شكراً لك.»بدون حتى النظر إليها، لأنني لم أكن لأرتدي ملابسي بحيث يكون من الممكن إسقاطي، رأسي أولاً، في حفرة القرابين حيث العذاب الأبدي. ولكنني لم أقل ذلك الجزء.

ذهبت إلى السرير، وبعد بضع دقائق، نقرت أمي على باب غرفتي، وسألت، «هل يمكنني الدخول؟»

قلت لها، «حسناً.»

جلست على طرف سريري ونظرت إلي لبرهة فقط، ولكنني حدقت في السقف كما لو كنت أرى شيئاً فائق الأهمية هناك في

الأعلى. انحنت، ووضعت يدها على رأسي، وبدأت تحرك أصابعها نزولاً على شعري. قررت أنني لن أستمتع بذلك الشعور بالذات في ذلك الوقت بالذات.

لقد صرف قلبي انتباهي بتذكيري، مراراً وتكراراً. «لقد أخلفت بوعدها. لقد اتفقت مع أبي، إنهما يرسلانك من جديد.» وذلك حقق المُراد.

وبعد لحظات، شعرت بنقر، نقر، نقر على الجزء العلوي من بيجامتي، وكانت هناك بقعة رطبة في منتصف صدري. نظرت إلى أمي، وكانت هناك دموع كبيرة تتدحرج على خديها ثم عليّ.

وقالت، «أنا آسفة، يا آيدا بي،»

وعلى الرغم من قلبي القاسي كقساوة الصخر، وقراره، إلا أنني شعرت بكتلة من الحزن تصعد من صدري إلى حلقي. وبطريقة أو بأخرى، تسلل فيضان كامل من الدموع عائداً إلى رأسي في الوقت الذي كان فيه قلبي الجديد منشغلاً، وكانت تندفع نحو الجزء الخلفي من عينيّ.

ومع ذلك، فقد تخلصت من البكاء، لا سيما أمام أبي وأمي. لقد كان قلبي الجديد يقول للحزن والدموع، «لا، لا يمكنكم الخروج! عودوا من حيث أتيتم!»

ولكن الحزن هو عدو قوي، وربما من الأصعب أن تكبح الكآبة من أن تكبح السعادة، وقد كان ذلك كفاحاً. شعرت بألم في حنجرتي، وبدت عيناي كما لو كانتا ستنفجران، ولكن بقيت أقول

لها، «لا! لا! لا!» وفي نهاية المطاف، كان بإمكاني أن أشعر بأنهما كانتا تتراجعان، شيئاً فشيئاً.

وسوف أعترف، على الرغم من أنني قررت أن لا أحب أمي بعد ذلك، بأنه كان من الصعب رؤية حزنها. لقد أراد جزء مني أن يفعل شيئاً. ولكنني كنت أعرف أنني لو قلت أي شيء أو لمستها أو تحركت قليلاً فقط، فإن كل الحزن الذي بداخلي سيستغل الفرصة ليرتفع ويعود من جديد وينسكب إلى الخارج، ولن يكون هناك ما يوقفه. وسنضيع فيه للأبد.

لذا، فقد نظرت إليها فقط.

وأخيراً، انحنت وقبلتني، وقالت، «تصبحين على خير، يا حبيبتي،» وخرجت.

الفصل 14

قال أبي عند تناول وجبة الفطور في صباح اليوم التالي، «تتوقف الحافلة عند طرف الطريق الخاص الذي يوصل إلى المنزل في الساعة السابعة والنصف بالضبط، يا آيدا بي.» على الرغم من أنه كان قد سبق وأخبرني بذلك ثلاث مرات في اليوم الذي مضى.

قلت، «هنه،» التي بدت أشبه بالتذمر أكثر من كونها موافقة، ولكن ليس إلى الحد الذي من الممكن أن يوقعني في مشكلة.

«آيدا بي ...» بدأت أمي مرتين، ولكنها لم تكمل أبداً، ولم أفعل شيئاً إزاء ذلك.

وبعد تناول وجبة الفطور، قمت بتنظيف أسناني، وحملت حقيبتي وخرجت متجهة نحو موقف الحافلة، وانتظرت. لقد خرجت قبل وقت طويل من الموعد كي لا أضطر إلى التحدث مع أمي وأبي، ولكي لا أضطر إلى سماع أي شيء حتى شبيه جداً بجملة «سيكون كل شيء على ما يرام.»

لقد كان الطقس ماطراً وعاصفاً، ولكنني تركت المظلة، التي كانت أمي قد أخرجتها من أجلي، مغلقة داخل حقيبتي. لقد بلل ذلك المطر ساقيّ بالكامل، وكان يرشق وجهي ومقلتي عيني حتى أصبحتا تؤلماني، ولكنني كنت سعيدة، لأن ذلك كان يجعلني أكثر غضباً وأكثر إصراراً على أن أكون في أوج عنادي عندما أصل إلى المدرسة. وعندما توقفت الحافلة، صعدت إليها بدون الالتفات لأرى ما إذا كانت أمي تلوح لي من النافذة، أو ما إذا كان أبي يراقب من الحظيرة.

قال سائق الحافلة وهو مبتسم ومبتهج، «صباح الخير.»

قلت بنبرة كالحديد: باردة وقاسية وجافة، «صباح.»

صعدت الدرجات، وتوقفت في آخر الممر. وجعلت عينيّ تبدوان كشقين بحيث أبدو شريرة بقدر ما كنت أشعر بذلك. ولكنك عندما تجعل عينيك كشقين فإن كل شيء يصبح ضبابياً، لذا فقد أصبح الجميع في تلك الحافلة عبارة عن أشخاص غير معروفين ضبابيين. ليس هناك أحد كنت أريد أن أعرفه، على أي حال. ومشيت في الممر وأنا على تلك الحال، لا أرى أحداً، ولكنني كنت فقط أبحث عن مكان.

وفي منتصف الممر تقريباً، وجدت مقعداً كله لي أنا. جلست هناك طوال الجولة، وكنت أحدق بعينين نصف مغمضتين بظهر المقعد الذي أمامي بعينين ليزريتين، وكان فمي مستعداً للزمجرة، ويداي مثل مخالب حادة تقبض على الحقيبة التي في حجري، ولا أفكر بشيء سوى، أنني *أكره* هذا، مراراً وتكراراً.

وصعد إلى الحافلة عشرة أطفال آخرين قبل أن نصل إلى المدرسة، ولكن لم يجلس أي منهم معي. لابد أنني كنت أشع دناءة شنيعة من أكثر الأنواع فظاعة. كما لو كانت توجد حولي غيمة سوداء من الهواء الغاضب النتن بحيث لم يرغب أحد باختراقها خشية أن تصيبه آلام مبرحة أو إصابات مؤلمة.

عندما وصلنا إلى المدرسة، خرجت من الحافلة ودخلت إلى المبنى مع الآخرين جميعهم. ومن ثم اتبعت اللافتات المؤدية إلى المكتب، ووقفت أمام طاولة خشبية كبيرة.

«هل يمكنني أن أساعدك؟» قالت ذلك سيدة ربما اعتقدت أنها كانت تبدو لطيفة لو أردت أن أصدق أن أي شخص هنا كان لطيفاً ، ولو كان بإمكاني فعلياً أن أراها، حيث أن عينيّ كانتا لا تزالان على شكل شقين.

أجبتها، «أنا آيدا آبلوود.»

«حسناً يا آيدا آبلوود، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟» وحتى مع رؤيتي الضبابية، كان بإمكاني أن أخمن بأنها كانت تبتسم. بإمكانك أن تعرف ذلك فقط من نبرة صوتها. لقد كرهت ذلك.

قلت، «أنا جديدة،» ويمكنك أن تعرف من نبرة صوتي أن سعادتها لم تنتقل إلي بالعدوى.

«إذن لنرى أين هو المكان المخصص لك.»

«المكان المخصص لي هو المنزل،» هذا ما أراد رأسي أن يقوله، قبل أن تسنح الفرصة لقلبي القاسي الجديد أن يسكته. وفجأة، كان

بإمكاني أن أرى وأشم وأشعر بالمنزل، إنني أفتقده بشدة. ولكن قبل أن أبدأ بالنحيب وإفشاء كل شيء لها، أوقفني قلبي. لقد ذكرني بأنه حتى لو لم يكن مكاني المخصص هو في مدرسة إيرنست بي. لوسن الابتدائية، فإنه لم يعد المنزل هو المكان المخصص لي بعد الآن، أيضاً. وغضبت من جديد.

قالت، «ها قد وجدناه،» كما لو كانت تخبرني بشيء مفرح.

«أنت في صف الآنسة واشنطن، إنها الغرفة مائة وثلاثون.»

وتابعت، «والآن، لكي تذهبي إلى صفك، تخرجين من هذا الباب، وتأخذين يسارك، ويكون هو الباب الثالث إلى يمينك. ومكتوب على لافتة موضوعة خارج الصف، الآنسة واشنطن، الصف الرابع. هل يمكنك أن تفعلي ذلك؟»

قلت، «نعم يا سيدتي،» مع قدَر قليل من الدناءة في صوتي.

ولأنه في تلك اللحظة، عندما استدرت لأذهب إلى القاعة باتجاه زنزانة البلادة القاتلة التي كنت متأكدة من أنها تنتظرني في الغرفة مائة وثلاثين من تلك المدرسة، كنت أفيض بالبؤس. كنت بحاجة لأن أنفّس القليل منها قبل أن تصل إلى مستويات خطيرة، وتنفجر مني على شكل نذالة شريرة في وجه أي شيء في طريقها، بمن في ذلك أطفال الروضة الأبرياء.

وصاحت تلك المرأة بعد خروجي، «ليكن يومك رائعاً، يا آيدا!»

ولكنني لم أرد عليها بأي شيء. فقد كنت أفكر في نفسي، كلما كانت الكلمات أقل كان ذلك أفضل، بالنسبة لجميع الأشخاص المعنيين.

الفصل 15

توقفت في مدخل الغرفة 130 لدقيقة، لمجرد إلقاء نظرة شاملة عليها بحيث يمكنني أن أفعل كما يفعل الجنود قبل المعركة: يقيّمون العدو، ويضعون خطة، ويهاجمون.

لقد كان بعض الأطفال لا يزالون يعلقون معاطفهم، ويتحدثون إلى بعضهم البعض، ويخرِجون كتبهم، ويصدرون أصواتاً مرحة. وفي الخارج، كانت الشمس قد بدأت بالبزوغ، وكانت تسطع في النوافذ. وكانت هناك أقواس المطر وصور وكلمات ملونة كبيرة على لوحة الإعلانات. وكانت هناك حتى سجادة جميلة في الطرف البعيد من الغرفة حيث لم تكن توجد مقاعد، وإنما فقط رفوف كتب كانت تبدو كأنها كتب حقيقية، وليست كتب دراسية. وكل ما كان ينقص كانت العصافير الزرقاء والموسيقى المرحة.

وهناك كانت الآنسة واشنطن، على ما أظن، تجلس على كرسي أحد الأطفال وذقنها يستند على يديها، وتستمع إلى إحدى الفتيات التي كانت تنقر بأصابعها وتتحدث في الوقت ذاته.

أدركت أن هذا مكان دافئ. ليس مكاناً ذا حرارة دافئة، وإنما مكان يجعلك تشعر بالدفء بداخلك. إن جزءاً مني كان يعرف ذلك، ولكن قلبي رفض أن يشعر به.

لذا، فقد بقيت أنظر في كل مكان، وأضع قائمة بكل شيء كان في رأسي، بحيث يمكنني استخدامه إذا اضطررت إلى ذلك من أجل خطتي لأكون غير معروفة، وغير مشارِكة، وغير مهتمة.

سمعت صوتاً منخفضاً ووديّاً يقول، «حسناً، مرحباً.»

نظرت نحو المكان الذي أتى منه الصوت، وكانت هناك الآنسة واشنطن تحدق في وجهي، وتتجه نحوي مباشرة. لقد كانت تلك المرأة مثل الشاحنة: ضخمة وقوية وموجِّهة. ولكنها تتحرك بنعومة وبدون صوت، مثل نموذج للرفاهية من الطراز الأول.

سألت، وهي مبتسمة عندما أتت متجهة نحوي، «هل أنت آيدا؟»

وقد فوجئت جداً بها، وبصوتها وبحجمها وبأنه كان بإمكاني أن أشعر بها حتى عندما كانت على بعد عشرين قدماً، لدرجة أنني وقفت هناك لبرهة. وعندما لملمت نفسي، كل ما استطعت أن أفعله هو أن أومئ برأسي.

قالت، «مرحباً بك، يا آيدا، أنا الآنسة واشنطن،» ومدت يدها لتصافح يدي.

أعطيتها يدي، ليس لأنني أردت ذلك، ولكن لأنني لم أكن أفكر بوضوح. إن اكتشاف أن الآنسة واشنطن لم تكن أي شيء مما

توقعت قد أعاق مؤقتاً تقييمي للعدو وخطتي، ولكن ليس لفترة طويلة. لقد شاهدت يدي تتحرك صعوداً وهبوطاً مثل ذراع المضخة.

وقالت، «لماذا لا تخلعين معطفك وتعلقينه، ومن ثم سوف آخذك في جولة في المكان.»

وهكذا، توجهت إلى غرفة المعاطف، وأعدت نفسي إلى شكل القتال في الوقت الذي عدت فيه إليها.

وقالت الآنسة واشنطن للأطفال في الغرفة، «أيها الأطفال، هذه آيدا آبلوود، وستكون في صفنا من الآن فصاعداً.»

قال الجميع بصوت واحد، «مرحباً يا آيدا.»

وقفت هناك، ورمقتهم بنظرة فارغة وتلويحة ملكة جمال أميركا بيد مسطحة بائسة تتحرك صعوداً وهبوطاً مرة أخرى.

وقالت الآنسة واشنطن، «لمَ لا يخبر كل منكم آيدا باسمه وبشيء عن نفسه.»

كانت هناك فتاة اسمها باتريس ترتدي قميصاً لامعاً، وأظافرها لامعة، ومشبك شعر لامع، أيضاً، وقالت إن أفضل أصدقائها كان سايمون. وكان هناك صبي اسمه كالفن أخبرني بأن أفضل شيء لديه في العالم كان الواجب المنزلي، ومن ثم ابتسم ابتسامة عريضة حقاً للآنسة واشنطن. وكانت هناك فتاة اسمها كلير قالت إنها كانت تحب القراءة واللعب مع أصدقائها، والذهاب في رحلات مع عائلتها، وأنها قد تأخذني في جولة في المدرسة إن شئت.

لقد كانت هناك مجموعة كاملة من الآخرين، أيضاً، وكانوا جميعهم يبتسمون كما لو كانوا سعداء بلقائي وسعداء بكونهم هناك، وكان كل ما استطعت فعله هو أن أنظر إليهم وأن أكون مؤدبة.

كنت أريد أن أقول، «أنتم أيها المغفلون المساكين،» وأنا لا أستخدم عادة هذا النوع من اللغة، «إنكم لا تعرفون أكثر من ذلك، ولكنني أعرف كيف تسير الأمور.»

وسمعت الآنسة واشنطن تسأل، «آيدا، هل ذلك هو اسمك المعروفة به، أم لديك اسم تحبب ترغبين باستخدامه؟»

والآن، كنت أعرف أن الآنسة واشنطن كانت تتحدث إلي، ولكنني لم أتمكن من أن أصدق أنها كانت تسألني ذلك السؤال بالذات. كما لو كانت تحاول أن تخبرني بأن تلك المآسي التي عانيت منها مع الآنسة مايرز كانت حلماً سيئاً، وأن هذا المكان المشرق والمرح هو ما يجب أن تكون عليه المدرسة في الواقع، وفي الغد سوف تمطر دولارات فضية، أيضاً.

كانت تبدو صادقة جداً ومُحبّة لدرجة أنني أردت، تقريباً، أن أصدقها. ولكنني لم أفعل. ولن أفعل ولو بعد مليون سنة ونصف.

قلت، «لا، آيدا فقط.»

وسألتني، «هل لديك شيء ترغبين في إخبارنا عن نفسك؟»

حسناً، لقد كانت هناك بضعة أشياء كان لساني يتوق إلى التشارك بها. ولكنني قررت بسرعة أن قول، «إنني أكره المدرسة وأي شيء يتعلق بها. وإنني أتوقع تماماً أن كوني طالبة في هذا الصف

سوف يسلب الحياة مني قبل نهاية هذا الأسبوع،» في أول يوم عدت فيه إلى مدرسة إيرنست بي. لوسن الابتدائية، ربما لم يكن الخطة الأفضل، على الرغم من أنها قد تكون الأكثر صدقاً.

«لا، يا سيدتي،» كان كل ما قلته.

ردت الآنسة واشنطن، «حسناً، جيد،» وكانت تبدو محبطة نوعا ما، ولكنها لم تصرّ على الأمر. «لنبدأ.»

لقد كانت الأمور على ما يرام، ليست جيدة، ولكن لم تكن التجربة الفظيعة والموجعة والمؤلمة تماماً أكثر من أي وقت مضى.

لم يزعجني أحد ولم يضايقني أحد. كانوا يبتسمون في وجهي، وكنت أنظر إليهم بجديّة، ووجهي خالٍ من أي تعبير كما لو أنهم لم يكونوا حتى موجودين فعلياً هناك، وهذا يعتبر الأسلوب الأكثر فعالية لجعل الناس يشعرون بعدم ارتياح وضمان أن لا يكون لديك أصدقاء.

قمت بحل أوراق العمل، ووقفت في الطابور، واتبعت التوجيهات، وأجبت عندما كان ينادى عليّ، ولم أتكلم في غير دوري، وكان ذلك ملائماً إلى حد ما. وكان ذلك أفضل من أن تكون مدفوناً في كثيب نمل مع أفعى عاصرة تلتف حول رقبتك، وفاصولياء بيضاء محشوة داخل فمك.

خرجنا في وقت الفرصة إلى الهواء الطلق. وجلست على الدرجات خارج المدخل الخلفي مباشرة، ووضعت ذقني على ركبتي، وكنت أحدّق في لاشيء.

مرت من جانبي إحدى الفتيات من صفي، الفتاة التي اسمها كلير، وهي تركض، فتوقفت أمامي، وسألت، «هل تريدين أن تلعبي معنا، يا آيدا؟»

قلت على الفور وبدون تفكير بالأمر، «لا،» وذلك لأن تلك كانت هي خطتي: لا أصدقاء، ولا لعِب، ولا تبسُّم، ولا فرح.

ردتِ قائلة، «حسناً،» وهي تبدو مندهشة وربما مجروحة، ومشت مبتعدة.

لقد انتابني شعور سيء نوعاً ما بشأن عدم حتى محاولة أن أكون لطيفة. ولكنني كنت أعرف أنني كنت على حق، وذلك لأن الأمر هو كالآتي: كيف تركض وتلعب عندما تشعر كما لو كان هناك طوب من أثقل أنواع الحزن تجثم على كل جزء من جسدك؟ كيف تضحك وتتحدث عندما لم تعد بداخلك أي ضحكات؟

وبالضبط عندما كنت قد جلست على تلك الدرجات الإسمنتية لفترة طويلة لدرجة أن الجزء السفلي من ظهري قد تخدّر، أتت الآنسة واشنطن، وجلست بجانبي، قريبة جداً لدرجة أنه كان بإمكاني الشعور بالدفء المنبعث منها. وكان بإمكاني أن أشمّ عليها، أيضاً، رائحة زبدة الفول السوداني وأزهار الصيف.

قالت، «كيف تسير الأمور، يا آيدا؟» في الواقع، كانت تنظر إلى الأمام مباشرة، مثلي تماماً.

«على ما يرام.»

فسألت، «هل لديك أي شيء ترغبين في التحدث عنه؟»

بقيت متمسكة بجوابي النموذجي، «لا، يا سيدتي.»

قالت، «حسناً، عندما ترغبين في التحدث، فإنني سأكون على استعداد للاستماع.» وفي حين أنني أؤمن تماماً بأن تلك الجملة هي الرقم خمسة في قائمة أسخف الأشياء التي يقولها الكبار على الإطلاق، إلا أن الآنسة واشنطن لم تكن تبدو سخيفة جداً عندما قالتها.

وأعطتني الآنسة واشنطن دقيقة لكي ألين وأستسلم، لأنها لم تكن تعرف عن قلبي وقراره، وأنها كانت تتعامل مع إرادة قوية ولا تتزعزع.

وقالت أخيراً، «سوف أراك في الداخل، إذن،» بعد فترة طويلة من الصمت. ولمست ذراعي وهي تنهض، بشكل كافٍ فقط لأشعر بها بعد أن ذهبت، ولكن ليس كثيراً إلى حد إعطاء الأمر أي اهتمام.

وأجبت، «نعم، يا سيدتي.»

الفصل 16

لقد أنزلني السجن الأصفر، المزوّد بقوة دافعة، من حيث أخذني في صباح ذلك اليوم.

صاح سائق الحافلة وهو يغلق الباب ورائي، «نراك غداً.» وكان ذلك أسوأ شيء كان يمكنه أن يقوله.

لقد كنت ممتلئة بالدناءة من جديد.

ولكن عندما كنت أقف هناك في نهاية المدخل، أدركت أنني كنت منشغلة جداً بالتفكير بالمدرسة طوال اليوم، ولم أقضِ أي وقت في التخطيط لما كنت سأفعله عندما أصل إلى المنزل. كل ما كنت أعرفه كان أنني لم أرغب في التحدث إلى أي شخص، وذلك لأنه لم يكن في داخلي ولا شيء واحد جميل لأقوله في أي مكان، إلا أنه كان لدي الكثير جداً من الأشياء لأقولها والتي كانت من الممكن أن توقعني في متاعب، لا سيما إذا سمع أبي عنها.

ولكن لم يكن هناك أب يراقب من الحظيرة، ولم تكن أمي عند الموقف أو تنظر خارج النافذة. ولكنني كنت آمل أن لا تكون قد نهضت من السرير وأصبحت قادرة على التجول عندما أدخل إلى المنزل، لأنني كنت أعرف أنه لو كانت أمي هناك، فإنها سوف ترغب في الحديث.

وكانت ستقول، «كيف كان يومك يا آيدا بي؟»

ومن ثم سوف تنظر إلى بعينين متعبتين، وحتى دنائتي سوف تهدأ للحظة. سوف أقف هناك وفمي مغلق بقوة، وشفتاي مضغوطتان، وقد تم إلصاقهما وتدبيسهما معاً لمنع الكلمات الغاضبة، التي كانت تخبط بعنف لكي تخرج وتوبخ أمي بحدّة، من الانفلات.

ولكنها كانت ستسألني مرة أخرى، «يا صغيرتي، كيف كان يومك؟ « ولم يكن قلبي قادراً على رفض دعوتين ليقول كلمته.

كانت تلك الكلمات ستخرج من فمي مثل الرصاص، وتتوجه مباشرة نحو أمي. كلمات مثل، «وما الذي يعنيك؟» و«لقد أخلفت بوعدك» و«هل رأيت والديّ؟ لأن والديّ قد اختفيا وأنا أعيش مع شخصين لا يحفظان وعدهما، ولا يهتمان بي، وهما مجرد خسيسين.» كلمات من شأنها أن تجعل عيني أمي تبكيان، ومن ثم ربما عينيّ، أيضاً، وستغرقني حتى إبطي في أعمق كومة من المتاعب على الإطلاق.

كنت بحاجة إلى خطة لأتجنب أمي، لذا، فقد مشيت في المدخل ببطء شديد لأعطي نفسي فرصة من أجل التوصل إلى خطة

جيدة. وعندما وصلت إلى الباب الأمامي، كنت أعرف ما كنت سأفعله.

كنت سأقول بكل أدب، «مرحباً،» إذا كانت أمي تنتظرني. ومن ثم عندما تسألني كيف كان يومي، سأقول لها، «هل يمكنك، من فضلك، أن تعذريني؟ عندي حاجة ملحة يجب قضاؤها على الفور.» وسوف أجعل ساقيّ تتقاطعان، كما تفعل عندما تهاجمك حاجة ملحّة من نوع معين، وأجعل وجهي ينقبض كما لو كنت على وشك الانفجار، وأصعد الدرج وأنا أعرج، وأمضي ثلاث دقائق واثنتين وعشرين ثانية في الحمام، وأفرغ سيفون المرحاض مرتين أيضاً، لكي أجعل الأمر يبدو حقيقياً. ومن ثم أذهب إلى غرفتي، وأضع لافتة تقول:

متوعكة قليلاً

(ولكن ليس كثيراً إلى درجة أنها بحاجة

لقياس درجة حرارتها)

طفلة متعبة في الداخل

يرجى عدم الإزعاج

حتى الصباح.

وفي الأسفل، سوف أرسم صورة لولو تجلس أمام بابي تماماً، وتكشر عن أسنانها، وتهسهس، «يرجى عدم الاقتراب!»

بتلك الطريقة، لن أكون مضطرة لقول أي أكاذيب كاملة، ولن أوقع نفسي في ماء ساخن بحيث أكون وجبة آيدا بي المطهوة جيداً عند حلول وقت وجبة العشاء.

فتحت الباب الأمامي فتحة صغيرة وألقيت نظرة خاطفة حول المكان لأعرف ما الذي كان ينتظرني. ولكن لم تكن أمي هناك على الكرسي الكبير، أو في أي مكان بالجوار. لذا فقد تسللت بقية الطريق إلى الداخل، وأغلقت الباب ورائي بهدوء شديد. وصعدت الدرج على رؤوس أصابعي.

وبمجرد أن وضعت قدمي اليمنى على الدرجة السفلى، وأنا أشتم رائحة الحرية ولكن بدون أن أذوقها تماماً. من ذا الذي سيأتي يركض من المطبخ، ويقفز، وينبح ويقذف باللعاب في كل اتجاه، كما لو أنه لم يرني منذ عشرين سنة، سوى روفوس.

إن كل خطة وضعتها اندفعت إلى الموقد، وانطلقت نحو المدخنة، واختفت في السماء.

وسمعت أمي تنادي من المطبخ، «آيدا بي؟»

أجبت، «نعم يا أمي،» بينما كنت أمسح وجهي بظاهر كفي لأزيل بعض العصير اللزج المنتشر من فم روفوس، وأرمقه بنظرة تنم عن عدم الرضا.

«تعالي إلى المطبخ، يا حلوتي.»

«إنني مضطرة إلى الذهاب إلى الطابق العلوي لأبدأ حل واجباتي الدراسية» هو ما فكر عقلي أنه كان سيمنحني الفرصة الأفضل للهروب، لذا، فقد جربته.

ولكن صوتاً آخر رد عليّ. لقد كان وكيل الهلاك والكوارث، قال أبي بلهجة آمرة، «آيدا بي، تعالي إلى المطبخ.»

وكانت تلك هي نهاية الأمل. طأطأت رأسي، وأخذت أجرّ حقيبة ظهري ورائي، وأستعد لشيء ليس جيداً.

عندما دخلت إلى المطبخ كان بإمكاني أن أشعر بكليهما، كل منهما على جانب من جانبيّ. وقررت أنني سأدعهما يبدآن بأي محادثة كان لا بد أن تجري.

سألت أمي، «هل أنت جائعة، يا آيدا بي؟ هل تريدين أن تتناولي شيئاً ما؟»

قلت، «لا، شكراً لك.»

حاولت أمي مرة أخرى، «يا حلوتي، هل تريدين الجلوس والتحدث قليلاً؟»

قلت للطاولة، «إنني أشعر بشيء من التعب،» وأضفت، «وأحتاج إلى استخدام الحمام،» محتفظة بجزء صغير من خطتي السابقة. وبدأت بالاستدارة لأذهب في طريقي.

وسمعت سيد القسوة يقول، «توقفي، يا آيدا بي.»

تجمدت، وكنت قادرة فقط على رؤية المدخل وطريقي إلى التحرر بزاوية عيني اليسري.

سأل أبي، «كيف كان يومك، يا آيدا بي؟»

حسناً، لقد استغرق الأمر مني دقيقة للتغلب على الصدمة أن أبي، من بين كل الناس، كان سيسألني ذلك السؤال بالذات، لا سيما وأنني كنت متأكدة أنه لم يكن يرغب في سماع جواب آيدا بي الصحيح مائة وعشرة بالمائة والصريح بقسوة.

والآن كنت أواجه معضلة، إذ كان يتعين علي أن أجد طريقة لأجيب عن ذلك التساؤل بدون المساس بقرار قلبي، ومع تفادي انفعال أب لن يقدِّر أي شيء يبدو قريباً إلى الوقاحة.

لذا فهذا هو ما خطر لي، والذي كان يبدو أفضل من أي خيار من خياراتي الأخرى، ولكنه لم يكن بأي حال من الأحوال يقترب من كونه جيداً: قلت، «لقد كان مقبولاً (okay).»

ولكن في رأسي كانت «على ما يرام (okay)» تبدو هكذا: O.K. هذان الحرفان كانا يمثلان كارثة فظيعة Outrageous Katastrophe، وأعلم أن تهجئتها خطأ، ولكنها كانت أفضل ما كان بإمكاني فعله في تلك اللحظة.

وبعد ذلك نظرت بشكل مباشر إلى أبي، وقلت، «هل يمكن، من فضلك، أن تعذرني الآن؟» وربما لم يكن يظهر في الكلمات التي استخدمتها غضب، وإنما كان في صوتي وكان يومض من عيني.

وبدأ أبي، «آيدا بي ...» بصوت مرتفع بالفعل وهو يشد نفسه ليقف منتصباً. لقد كان يميل إلى الأمام بحيث كان بإمكانه أن يكون أقرب قليلاً في حال احتاج إلى أن يمسك بي.

ولكن أمي أوقفته، وقالت، وهي حزينة تماماً لعدم قدرتها على رفع صوتها، «إيفان، دعها تذهب.»

ظل أبي يحدق في وجهي، ولكنه انحنى إلى الخلف بعد دقيقة أو دقيقتين.

وخرجت بسرعة إلى حد ما ، وصعدت إلى غرفتي.

الفصل 17

في إحدى الليالي عند وقت وجبة العشاء بعد أسبوعين، قال لي أبي، «لقد بعنا قطع الأرض، يا آيدا بي. لعائلة واحدة، وسوف يحتفظون ببعض الأشجار.»

وأضافت أمي، «ربما سيكون لديهم أطفال في مثل سِنك، يا صغيرتي،» وقد بدا أنها كانت تتحسن منذ أن بدأت أخذ علاجاتها الجديدة، ولكن كان من الصعب التمييز حيث أنني كنت أتجنب التقاء التواصل بالعيون، والتواصل بالكلمات مع كِلا هذين الشخصين بالذات. «ألن يكون من الرائع أن يكون لديك أصدقاء على الطرف المقابل من الطريق؟»

قلت، «رائع،» بتلك الطريقة التي كنت أتحدث بها عندئذ، طريقة تستخدم الكلمات ولكنها لا تجعل أي شخص يعرف أي شيء.

في ذلك السبت، أحضر البناؤون جرافة وحفارة إلى الأرض في الخارج لإزالة جزء من البستان، وبدأوا بحفر أساسات المنزل

أولئك الناس - أولئك الناس الذين لا أعرفهم حتى، ولكنني كنت أعرف أنهم لا ينتمون إلى هذا المكان.

مشيت وروفوس حتى نهاية الوادي، وجلسنا في الغابة وراقبنا الوضع لبرهة. أغمضت عينيّ نصف إغماضة ضيقة جداً جداً هذه المرة، إلى أنحف وأدنى شقين يمكنني عملهما. وأرسلت رسائل تخاطرية إلى العمال، مثل، *ابتعدوا! أنتم في العنوان الخطأ!*

ولكن، بمجرد أن بدأوا يقطع الأشجار واقتلاع جذورها، أصيبت معدتي بالغثيان، وأخذت ساقاي وذراعاي ترتجف، وشعرت بدوار في رأسي. كان لا بد لي من أن أنهض وأركض، وأنا أرتعش، إلى المنزل، وكان روفوس ينظر إلي وهو يبتسم ولعابه يسيل كما لو أنه اعتقد أنني كنت ألعب معه. لقد كان ذلك هو كل ما كان بإمكاني فعله للوصول إلى غرفتي، والاستلقاء على السرير، وتغطية أذنيّ بوسادتي بحيث لا أتمكن من سماع صوت تكسّر الجذوع ولا صوت السحق الذي تصدره الآليات.

قلت في رأسي مراراً وتكراراً، «أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة.»

وعندما توقفت أخيراً كل تلك الأصوات المرعبة، بقيت مستلقية هناك، هكذا تماماً، لفترة طويلة، أشعر بالغثيان والتعب والخدَر.

ومن ثم توصل قلبي الجديد إلى خطة.

والآن حتى تلك اللحظة، منذ اليوم الذي كنت فيه مع أبي في الحظيرة، كان الشيء الوحيد تقريباً الذي كنت مهتمة به هو إعداد

خطة لإنقاذي وإنقاذ الوادي الخاص بي. ولكن بالرغم من كل تمنياتي وآمالي وإرسالي لعشرة أنواع مختلفة من الصلوات من أجل الحصول على خطة جيدة، لم تخطر لي ولا خطة واحدة ملائمة. لقد كان الأمر يبدو كما لو أن الأفكار المثيرة والمشاريع الحماسية التي كانت تحوم في رأسي باستمرار قد تبخرت.

ولأنني عدت إلى المدرسة في تلك الأسابيع الأولى القليلة، فإن الشيء الوحيد الذي بقي في أي جزء مني كان التعاسة. لقد كانت من النوع الهادئ، أيضاً، بحيث لا تفعل الكثير وتقول حتى الأقل. فبعد ظهر كل يوم أعود إلى المنزل، وأنهي واجباتي المنزلية، وأتناول عشائي، وأغسل الأطباق، ومن ثم أجلس في الكرسي الكبير ولا أفعل شيئاً.

وكان أبي يسأل، «آيدا بي، ماذا تفعلين؟»

وكنت أقول، «لا شي» بدون أن أزعج نفسي بجمع الطاقة اللازمة حتى أنطق الكلمة بشكل صحيح.

وكان يقول لي بصوت لم يكن يبدو كما لو كان مجرد اقتراح، «حسناً، لماذا لا تجدي شيئاً تفعلينه.»

لذا، فقد كنت أذهب وأجلس في الشرفة ولولو في حجري، أدللها ولكن بدون أي انتباه، لذا فقد كانت يدي *تنقر*، *تنقر*، *تنقر* على قمة رأسها، فتشعر بالتعب من ذلك وتعضني عضة خفيفة لتجعلني أعرف أنني لم أكن أمنحها الاهتمام الذي كانت تستحقه،

وتقفز على الأرض، وتبتعد وذيلها الساخط مرفوع في الهواء كتحذير أخير. عندئذ كنت أجلس لوحدي، أنظر ولكنني لا أرى، أصغي ولكنني لا أسمع.

وكان أبي يمر وهو في طريقه إلى الحظيرة، ويقول، «آيدا بي، توقفي عن إضاعة الوقت سدى، وحاولي أن تجدي شيئاً تفعلينه.»

كنت أرفع جسمي لأنهض، وأحاول أن أجد مكاناً آخر لأذهب إليه.

لم يكن بإمكاني الذهاب إلى البستان، إذ لم يكن لدى أشجار التفاح أي شيء لتفعله معي، وكانت دائماً تهمس بأشياء لبعضها البعض، مثل، «هل سمعتم عن فيلومينا؟ لقد قطعوها، يا للمسكينة.»

وكانت تتساءل، «من سيكون التالي؟ ما الذي سيفعله أولئك الناس بعد ذلك؟»

وكانت الأشجار التي لم تكن تريد أن تبدو خائفة تقول، «لو كان بإمكاني، لكنت اقتلعت جذوري وذهبت إلى الجانب الآخر من الجبل، يجب أن أفعل ذلك. إن هذا المكان ينهار.»

ولكن الأمر الأسوأ كان الأصوات التي كانت تصدرها في المساء. «أووووو، أووووو،» كانت تئن عندما كانت الريح وأغصانها ترقص معاً في حزن، وكانت أوراقها تلوح مودعة لأرواح أصدقائها.

بقيت بعيدة، ليس لأنها كانت تتجاهلني، ولكن لأنني كنت خائفة من أنها قد تتكلم معي في نهاية المطاف. لقد كنت خائفة من أنها قد تسألني، «لماذا لم تساعدينا، يا آيدا بي؟ لماذا لم تحمينا؟»

ولكن لم يكن لدي إجابة سوى أنني كنت أشعر بأنني قد اقتُلِعتُ أنا، أيضاً.

لذا، كنت أقف منتصبة عند جانب الجبل، ممتنة أن النجوم كانت بعيدة بحيث يمكنك بالكاد سماع أصواتها. بعيداً عن البستان والغدير وتلك الشجرة العجوز، إلى أن يصرخ أبي، «آيدا بي، حان الوقت لتدخلي إلى المنزل!»

عندئذ كنت أذهب إلى المنزل، وأندس في سريري، وأفعل الشيء ذاته كله من جديد في اليوم التالي.

ولكن الآن قدم لي قلبي خطة. لدي مهمة وهدف والكثير الكثير من الأشياء لأفعلها.

أقوم بإنجاز واجباتي المدرسية بسرعة، وأحبس نفسي في غرفتي حتى وقت العشاء، ومن ثم سوف أغسل الأطباق بسرعة وأختفي حتى صباح اليوم التالي. لقد كنت أعمل نحو تحقيق شيء لا يقل عن تصحيح أخطاء، وتحويل الشر إلى خير، وإيقاف الجنون الذي كان يسلب الوادي الخاص بي باستمرار وبشكل مؤكد. لقد كنت آيدا بي، البطلة الخارقة من الطراز الأول، صديقة المضطهدين، وعدوة السرطان، والدناءة، والتدمير الطائش، والتدريس التقليدي.

وقمت برسم رمز لي مع وجود الجبل في الخلفية، وكانت في المقدمة بقايا مدرسة إيرنست بي لوسن الابتدائية. لقد كانت عبارة عن مجرد كومة من الأنقاض، والطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تعرف بها ما الذي كان موجوداً هناك هي أنه كان لا يزال بإمكانك

أن تجمع بعض الكلمات من لافتتها التي تم سحقها، أيضاً. لقد كنت معلقة فوق تلك الكومة من الإسمنت، بعد لحظات من تدميرها.

لقد قام مساعدي الخارق، روفوس، بإخلاء كل رجل وامرأة وطفل من ذلك المبنى. وفي اللحظة التالية، حلقت هابطة مباشرة من السماء نحو الأرض، ومع إحدى قبضتي يديّ ممدودة أمامي، ارتطمت بقبة المدرسة، ومع تلك الضربة الواحدة المحدد موضعها تماماً، هشمت المكان بكامله. لقد كنت أرتدي بنطالاً أرجوانياً، وقميصاً أرجوانياً، وجوارب أرجوانية، وحذاء رياضياً أرجوانياً. وكانت ضفيرتاي تنسابان ورائي، وكنت أبتسم ابتسامة عريضة جداً.

لقد كانت أشجار التفاح تحيط بالمدرسة من جميع الجوانب، وكان جميع الأطفال آمنين بين أغصانها، وروفوس يأكل فطيرة. وكان الجدول يتدفق من جانب أنقاض تلك المدرسة، وكان فيه جميع المعلمات، ومدير المدرسة، والسكرتيرة، أيضاً، يرتدون أطواق نجاة، وهم في طريقهم إلى كندا.

لقد كان رسماً رائعاً، وقد قمت بوضعه خلف باب غرفتي ولم أحاول حتى أن أخفيها.

بعد ذلك، واصلت الرسم بالجزء الذي سيرعب الناس الجدد لكي يرحلوا.

قمت برسم لافتات وملصقات وتحذيرات بالطلاء وأقلام التحديد العريضة وأقلام التلوين. وبحثت في موسوعتنا عن أكثر الأشياء خطورة وفتكاً في العالم، وأحضرتها إلى وادينا.

يظهر في أحد الملصقات، احذر من الأفاعي السامة، وكانت هناك صور لبعض الأفاعي ذات الأجراس، والكوبرا، والأفعى العاصرة وهي تعصر امرأة مذعورة حتى الموت، وعيناها تقفزان من محجريهما في رأسها بسبب شدة الضغط. وفي الأسفل، كان هناك رجل تظهر على كاحله علامات عليها دماء من أنياب أفعى، ومن الواضح أن حياته قد انتهت بألم مبرح.

وظهر على ملصق آخر، تم العثور على عنكبوت الرتيلاء، مع العنكبوت الأسود الأكبر والأكثر شعراً يقف وراء الكلمات، وعلى استعداد ليمسك بك بكماشتيه العملاقتين.

وظهر على ملصق ثالث، الأعاصير تضرب هذا المكان أسبوعياً، مع صورة لإعصار قمعي يحمل منزلاً صغيراً جميلاً، مع أم وأب وطفلين صغيرين يصرخان، إضافة إلى كلبهم، يحلقون إلى مكان لا يمكن لأحد أن يعرف أين هو.

وقد كانت لافتات أخرى تحذر من خطر: ذباب التسي تسي، وكلب مالاموت نهم وشرس هرب من متجر الحيوانات الأليفة وتم رصده في الجوار؛ وغزو أسراب جراد متوقع هذه السنة، مع صور وصفيّة للغاية.

كنت أعرف أن بعض هذه الأشياء ما كانت لتحدث أبداً في المكان الذي نعيش فيه، ولكنني كنت آمل أن لا يكون لدى جيراننا الجدد قدر جيد من الثقافة. لقد استخدمت الكثير من الكلمات

الكبيرة لأجعلها تبدو حقيقية، وقمت بتوقيع كل واحدة منها باسم رئيس الشرطة، فيرنون كيو. هايوتر.

لقد كانت تحفاً فنية مليئة بالرعب.

وعندما أصبحت لدي حوالى أربعين منها جاهزة، أخذت نشراتي إلى موقع مبنى المنزل الجديد، وقمت بتعليقها في كل مكان — على أعمدة الهاتف بجانب الطريق، وعلى الأشجار التي بقيت في الموقع، وعلى خرسانة الأساسات. وحتى أنني قمت بإلصاقها مباشرة بواسطة شريط لاصق على الهيكل الذي كان قد تم رفعه فعلياً.

وبدأت بجمع أشياء وتركها كهدايا في قبو منزلهم: أفاعي وعناكب وديدان صغيرة وبزاقات. كان هذا المكان سيبدو سيئاً ومخيفاً للغاية، وسيبدو مقززاً جداً، وسيفضلون البقاء في منزلهم في البلدة، وعدم المجيء للعيش هنا أبداً. وسيقومون بإعادة الأرض إلى أبي، فقط لكي لا يضطروا مرة أخرى للقلق بشأن تفشي طاعون دَبْليّ أو التماسيح التي تعيش في البستان.

الفصل 18

هناك في المدرسة، كانت الآنسة واشنطن تحاول أن تلح عليّ بشكل متواصل.

كنت في كل يوم وقت الفرصة أجلس على الدرجات. وفي كل يوم كانت تأتي وتجلس إلى جانبي وتقول، «هل لديك أي شيء تريدين أن تتحدثي بشأنه، يا آيدا ؟»

وكنت في كل يوم أقول، «لا، يا سيدتي.»

ولكن الأمر أصبح أصعب وأصعب لأقول، «لا، يا سيدتي،» بدون النظر إليها، والتصرف كما لو كانت غريبة، وكما لو كان صحيحاً حقاً أنه ليس لدي أي شيء كنت أريد أن أتحدث بشأنه.

عندما يتوقف شخص كل يوم للتحدث، ويطرح عليك أسئلة عن نفسك، ولا يقول شيئاً ليملأ دورك في المحادثة، فإن ذلك لا يفعل شيئاً سوى أنه يجعلك تختار ما إذا كنت تريد أن تملأ دورك بنفسك، وفي هذه الحالة يكون من الصعب أن تعتقد أن شخصاً ما

هو عدوك، أو أن تجعله بعيداً جداً عن قلبك. من الصعب جداً أن لا تثق بشخص مثل ذلك.

وكانت تلح عليّ بطرق ربما لم تكن حتى تقصدها.

فقد كانت الآنسة واشنطن تقرأ لنا كل يوم بعد وجبة الغداء، وكان صوتها يشبه عشر آلات موسيقية مختلفة. لقد كان بإمكانها أن تجعل صوتها منخفضاً وعميقاً وقوياً مثل بوق التوبا، أو هوب هوب هوب سريع وخفيف مثل الناي.

عندما كانت تقرأ، كان صوتها يلتف حول رأسي وحول قلبي، وكان يجعل كل شيء ليّناً وخفيفاً. لقد كان يضع في قلبي ألماً يمنحني شعوراً جيداً. وعندما كانت تروي القصص، كان ذلك يجعلني أرغب في سرد قصص. كنت أريد أن أقرأ مثلها، بحيث يمكنني أن أحصل على ذلك الشعور في أي وقت كان.

كانت الآنسة واشنطن تقرأ كتباً جيدة، أيضاً، وليس كتباً سخيفة، مثل تلك التي كان يتعلم الأطفال منها كيف يتصرفون بشكل جيد. وكان الأطفال في كتبها يفعلون أشياء مضحكة، وأشياء شجاعة، وأشياء سحرية.

وكانت تمر بجانب مقعدي، وتضع كتابها فوقه. وكانت تهمس، «اعتقدت أنك ربما كنت ترغبين في قراءة هذا.»

وكنت أتركه هناك، كما لو لم أكن مهتمة على الإطلاق. ومن ثم كنت أدسه داخل حقيبة ظهري في نهاية اليوم. وكنت أخرجه من

الحقيبة في غرفتي في المنزل، وباب غرفتي مقفل، وقد كانت على حق - لقد كان يعجبني فعلاً. كثيراً جداً. ولكنني لم أكن لأخبرها بذلك.

لقد تدربت على القراءة بصوت مرتفع، مثل الآنسة واشنطن، للقطة لولو ولروفوس، ولكنني كنت أفعل ذلك في غرفتي، وبهدوء بحيث لا يسمعني أبي وأمي. وكان روفوس يغلق عينيه ويبدو سعيداً وهادئاً، تماماً كما كنت أبدو عندما كانت الآنسة واشنطن تقرأ. وقد كانت لولو تشعر بالملل بسرعة وتبدأ بالخدش على الباب لكي تخرج، ولكنني لم أكن أهتم، ولم آخذ الأمر على أنه شخصي.

لقد أحببت حقاً تحويل الكلمات إلى قصص بنبرة صوتي.

«الآنسة دبليو» هو ما بدأت أنادي به الآنسة واشنطن في عقلي، ولكنني لم أنادِها به أبداً في وجهها، وذلك بعد أسبوعين من وجودي في ذلك الصف.

وفي يوم الأربعاء أثناء موعد القراءة الصامتة، اختلست نظرة من فوق كتابي لأرى ما الذي كانت تنوي فعله. وها هي هناك وذقنها داخل يدها، وتنقر بقلمها الرصاص على طاولتها، وتحدق مباشرة نحوي. وبمجرد أن رأتني أنظر، ابتسمت، ونهضت عن كرسيها، واتجهت نحوي.

والآن، عرفت كيف يبدو المرء عندما يقوم بإعداد خطة. كان بإمكاني إدراك أن تلك المرأة كان تعدّ لطهو طبخة كبيرة، وقد كنت

أنا المكوِّن الأساسي فيها. ولم أكن سأحصل على أي جزء منها، وذلك لأن ذلك هو ما قرره قلبي.

وبسرعة كبيرة، أدرت نفسي إلى الأمام مرة أخرى، ورفعت كتابي أمام وجهي بحيث أبدو كما لو كنت منشغلة لدرجة لا تسمح بمقاطعتي. ولكن كان لدى الآنسة دبليو مهمة، وكنت مصممة على أن لا تصاب بخيبة أمل.

وقد قامت أولاً بالجلوس إلى جانبي، فقمتُ بتقريب كتابي جداً إلى أنفي، وكانا تقريباً يتلامسان.

ومن ثم حركت رأسها قريباً من رأسي، وبهدوء شديد، وقالت همساً تقريباً، «آيدا، إنني بحاجة لمساعدتك في شيء ما.» وقد شعرت بذلك الوخز الخفيف الجيد في أعلى رقبتي ونزولاً إلى ذراعي بحيث نتج عن ذلك قشعريرة، لأنها كانت تصدر أصواتاً ناعمة بالقرب من أذني كما كانت أمي تفعل.

وقالت، بصوت كخرخرة القطة، «أريد منك أن تساعدي روني في تعلّم جداول الضرب. هل تعتقدين أنه يمكنك العمل معه؟ وتعليمه إياها بالطريقة التي تعلمتها أنت بها؟»

حسناً، لقد كان الأمر يبدو كما لو أنها سحرتني، وأنا لم أتمكن من فك السحر. لقد أراد قلبي القاسي أن يلتفت إليها ويقول، ببرود وحدّة، أفضل أن لا أفعل ذلك، يا آنسة واشنطن.» وأهز رأسي إلى الأمام، وذلك كل شيء.

ولكن بدلاً من ذلك بقيت أشعر بصوتها في أذني وفي كل مكان من جسمي. وكنت أومئ برأسي، بدون إصدار أي أصوات مثل، «آهه- هاه» أو «نعم، يا سيدتي» يمكن أن تتداخل مع ذكرى ذلك الصوت الرقيق الذي كان يطلب مني فعل شيء بلطف شديد. لقد ذكرني ذلك بكيف كان يبدو الشعور عندما يكون المرء محبوباً.

الفصل 19

كان روني ديكويبر صغيراً وأشقر، ويركض أسرع من أي طفل في صفنا. وكان يبتسم دائماً، تقريباً، وإذا كنت سوف أعجب بشخص ما، فإنني أظن أنه قد يكون هو. لقد كان ودوداً جداً، حتى عندما كان الناس فظّين نوعاً ما، ولم يكن أبداً يضايق أي أطفال آخرين، ولكنه كان ضعيفاً في الرياضيات.

ليس في الجمع أو الطرح، وإنما في الضرب، فقد كان يخفق إخفاقاً ذريعاً إلى درجة أنني كنت في كل مرة يرفع فيها يده أو يُطلب منه أن يعطي إجابة، كنتُ أقوم مباشرة بإغلاق عيني والانتظار، لأنني كنت أعرف أنه لن يكون الجواب الصحيح. وفي بعض الأحيان كنت أفكر في نفسي، «أيها الرجل، روني، يجب عليك أن تتوقف عن ذلك.» ولكنه كان يستمر في المحاولة، وقد احترمته لعدم استسلامه، حتى على الرغم من أن الأمر كان يبدو بالنسبة لي مثل معركة خاسرة.

لذا، كان من المفترض أن أجلس معه أثناء وقت الدراسة وأن أوضح له كيف تعلمتُ جداول الضرب. ولكن لم يكن بإمكاني أن أتذكر كيف تعلمتها، سوى أن أمي وأبي كانا يقولانها لي باستمرار، ويطلبان مني حل مسائل، أو يجعلاني أقوم بتسميعها، وبقيت أحاول، وسرعان ما تعلمتها جميعها.

كان بإمكاني أن أدرك أن روني كان محرجاً لأنني كنت سأقوم بتدريسه، لأنني في أول مرة ذهبت فيها إلى مقعده، لم يفعل شيئاً سوى النظر نحو الأسفل إلى قدميه.

إنني أعلم الآن أنه من الصعب أن تكون غير جيد في شيء ما، وأعلم أنه من الصعب أن تكون بحاجة إلى مساعدة. لذا، فبدلاً من عدم قول أي شيء أو انتظاره حتى يقول شيئاً ما، وهو ما سيكون روتين قلبي البارد القاسي، وجدت نفسي أقول، «مرحباً.» لأنه انتابني شعور فظيع لرؤية روني السعيد الودود، العدّاء الأسرع، يبدو منزعجاً ويعاني من شعور سيء تجاه نفسه.

قلت، «مرحباً يا روني.» وجلست على المقعد الذي بجانب معقده، وقد كانت تلك المرة الوحيدة التي قلت فيها «مرحباً» لأي طفل آخر منذ أن بدأت بالحضور إلى هناك قبل أسابيع.

ولكن أعتقد أن روني كان لا يعي عظمة جهدي، وذلك لأنه تمتم فقط برد تحيتي قائلاً، «مرحباً»، وكان لا يزال ينظر إلى حذائه، كما لو أن رؤيته وهو يكشط الأرض كان الشيء الأكثر متعة على الإطلاق.

حسناً، لو كان هذا كالفن فاريبولت المغرور، الذي يعتقد أنه جميل جداً من انعكاس صورته، فإنني كنت سأقول إنه كان أكثر من وقح. ولكن هذا كان روني، وقد كان مجرد شخص طيب يشعر بالكآبة. تأثر قلبي المتحجر قليلاً، على الرغم من أنني لم أكن أريده أن يفعل ذلك.

تكلمت مع روني بهدوء شديد بحيث لم يكن من الممكن أن يسمعنا أي شخص، وحتى لا يشعر هو بالمزيد من الإحراج. وسألته، «هل تريد أن تلعب لعبة؟ أتريد أن تلعب لعبة، يا روني؟»

نظر إلي، نصف نظرة، ليرى ما إذا كنت جديّة أم أنني أغيظه أم أنني مجرد مجنونة.

سأل، «أي نوع من الألعاب؟»

قلت، «لعبة ذهنية. إنها مثل مضمار الحواجز لذهنك.»

تمتم، «أنا لست جيداً في الأشياء الذهنية،» وعاد ليفتتن بحذائه.

قلت له، «نعم، أنت جيد، ولكنك لا تعرف ذلك. روني، هل تركض كثيراً؟»

«إنني أركض طوال الوقت.»

قلت، «أراهن على أنني لو ركضت طوال الوقت لكان بإمكاني أن أكون سريعة بقدر سرعتك.»

رد قائلاً، «أشك في ذلك،» ما جعلني أغتاظ قليلاً، ولكنه، على الأقل، كان ينظر إلي مباشرة الآن، وقد تلاشى كل خجله. لقد كان يصبح جاهزاً للمضي قدماً.

قلت، «على أي حال،» لأنني قررت أن أدع ذلك الجزء الأخير يبقى على حاله، «إن الأمر كله يتعلق بالممارسة. سيتعين علينا أن نتدرب لهذه اللعبة، ومن ثم سوف نلعب، وسأبقى أهزمك باستمرار هزيمة ساحقة إلا إذا واصلتَ التدريب. إذا تدربتَ، ربما تهزمني في بعض الأحيان. هل تريد أن تلعب أم لا؟»

والآن، كنت أعرف أننا كنا عند النقطة حيث إما أن يشعر روني بالإهانة ويبصق على حذائي ويقول، «إنسي الأمر،» أو يتحمس ويقول، «لنبدأ.» وقد كان بإمكاني أن أرى كلتا الفكرتين تمران في رأسه في الوقت ذاته، وذلك لأنه كان ينظر إلى حذائي ويحرك فمه بكل الاتجاهات كما لو كان يجمع بصقة كبيرة، ولكنه كان في الوقت ذاته يكشط الأرض بحذائه بسرعة كبيرة كما لو كان يستعد للقفز عليه.

وقال أخيراً، «موافق. ما الذي سنلعب عليه؟»

أجبت، «يمكننا أن نلعب على من الذي سيبدأ أولاً في المرة القادمة.»

«لا، ذلك شيء للأطفال. لنلعب على أرباع دولارات.»

حسناً، لقد أعجبتني تلك الخطة لسببين. أعجبني أن روني كان منافساً، لأن ذلك كان يعني أنه كان سيحاول، وهذا الشيء

بكامله لن يكون مملاً أو مثيراً للشفقة كما اعتقدت. كما أنها أعجبتني لأنني كنت أعرف أنني كنت سأكسب بعض المال.

قلت، «حسناً،» وقررت في عقلي أنني في كل مرة نلعب فيها لعبتي، سوف أتحدى روني في سباق جري في نهاية اليوم، بحيث يكون بإمكانه أن يستعيد نقوده. أو بعضاً منها، على أي حال.

ولكن كان يجب أن تكون سباقاتنا في السر بحيث لا يعتقد أحد أنني كنت أمضي أي وقت ممتع.

بعد ذلك، بيّنت لروني ما الذي كان يتعين عليه أن يفعله لكي يتدرب.

بدأنا بأسهل عملية ضرب يمكنك أن تجريها، باستثناء ضرب الرقم واحد بأي رقم: جداول الضرب للرقم عشرة. وقد بيّنت له أولاً كيف أن كل إجابة ما هي إلا الرقم الذي تضرب الرقم به مع الرقم صفر بعده. وبعد ذلك، جعلته يكتب جدول ضرب الرقم عشرة عدة مرات، وقمت بكتابته معه بحيث لا يشعر بالوحدة. وكان يتعين علينا أن نعيد تسميع جدول ضرب الرقم عشرة مراراً وتكراراً، وبالعكس، أيضاً. بعدئذ كنا نختبر بعضنا البعض بالأساسيات فقط.

«كم يساوي اثنين ضرب عشرة، يا روني؟»

«عشرون. كم يساوي ثمانية ضرب عشرة، يا آيدا؟» بتلك الطريقة إلى أن تنشطنا وأصبحنا مستعدين تماماً.

وبعد يومين من ذلك، كنا مستعدين لتحدي المشاهير.

ولتحدي المشاهير يمكنك أن تكون أي شخص من أي زمن، حتى من القصص، إن شئت. وقد أراد روني أن يكون كارل لويس، نجم الجري المشهور جداً. وكنت أنا الملكة إليزابث، ملكة إنجلترا، بدون ملك أو أمير أو أي شيء.

وبالنسبة لهذه اللعبة بالذات، يربح الشخص الذي يحصل أولاً على خمس وعشرين إجابة صحيحة. وفي الجولة الأولى، تسألون بعضكم البعض أسئلة عن جداول الضرب الأساسية فقط، ولكن يمكنكم تبديل الأشياء قليلاً. يمكنك أن تسأل، «كم يساوي حاصل ضرب اثني عشر في عشرة؟» ولكن يمكنك أن تسأل، أيضاً، «كم يساوي حاصل ضرب عشرة في اثني عشر؟» وفي الجولة الثانية، يمكنك جمع أو طرح حاصل ضرب، أيضاً، مثل، «كم يساوي حاصل ضرب عشرة في عشرة، ناقص اثنين في عشرة؟» وإذا كنت بحاجة إلى جولة فاصلة بسبب التعادل، يمكنك أن تجعل الأمر معقداً جداً، ولكن يجب أن تكون عادلاً.

ليس من المفترض أن تستخدم ورقة، ولكنني سمحت لروني أن يستخدمها في أول مرتين. وهزمته تماماً، أيضاً. كثيراً.

ولكن مع مرور الوقت، كان بإمكاني أن أعرف أنه كان يتدرب في المنزل، لأنه كان يتحسن وأصبح يستخدم مسائل أصعب. لقد كان في بعض الأحيان يرغب في اللعب حتى عندما لم نكن في وقت الدراسة. كما كان يحدث عندما كنا نصطف للدخول

إلى الصفوف، وكان يعتقد أنه قد خطرت له مسألة تحتاج إلى براعة بشكل خاص.

وكان يقول، «هيه، آيدا. ربع دولار لسؤال واحد. سؤال واحد مقابل ربع دولار كامل. هيا.»

ولكن في معظم الأوقات، لم أكن حتى أرد عليه، لأنني لم أكن أريد أن يعتقد الأطفال الآخرون أنني كنت أمضي وقتاً مع أي شخص.

لقد كانت الطريقة الوحيدة التي كان بإمكان روني أن يهزمني فيها هي أن يبدأ هو أولاً، وكان يفعل ذلك بين الفينة والأخرى. ولكنني لم أهزمه أبداً في الجري، على الرغم من أنني أصبحت أكثر قرباً من ذلك، لذا فقد كان ذلك عادلاً.

كنت أتسابق معه في نهاية اليوم، عندما كان الجميع ينتظرون حافلاتهم، عندما لا يكون هناك أحد منتبهاً. كنا نتسلل خلف المدرسة ونجري من الخط الأصفر الأول المرسوم على أرض الملعب إلى السياج الخلفي. ومن ثم كنت أعطيه ربع دولار، وكنا نمشي عائدَين إلى طابور حافلتنا، ونتصرف كما لو أننا لم نكن نعرف بعضنا البعض على الإطلاق.

لقد كنت أقضي وقتاً ممتعاً، تقريباً، مع روني. ولكنني لم أقل لنفسي أبداً إنه كان صديقي، لأنني التقيته في مدرسة إيرنست بي لوسن الابتدائية.

الفصل 20

في أحد الأيام بعد الغداء، قالت الآنسة دبليو للصف، «أعلم أنه حان الآن وقت القراءة، ولكنني لا أعتقد أنه يمكنني أن أقرأ اليوم. إن صوتي متعب جداً.»

ووضعت يدها على حنجرتها وتغضن وجهها كما لو كان هناك شيء يؤلمها. لقد كان ذات الوجه الذي جعلته يتغضن عندما كان سايمون مارتيني على وشك الصراخ في الغرفة على باتريس بولينسكي، وكانت الآنسة دبليو ستقول، «سايمون، استخدم صوتك الداخلي. إنك تؤذي أذنيّ.»

رفع الجميع نظرهم من دردشاتهم أو عن أوراق العمل في الوقت ذاته تقريباً، وفي الاتجاه ذاته تماماً، مع التعبير ذاته مرسوم على وجوههم: مزيج من ثلاثين بالمائة صدمة، وعشرين بالمائة عدم تصديق، وخمسين بالمائة حزن محض.

قال ماثيو دريبل على الفور بصوت مرتفع، «آو، لا!»

شعرت كما لو أن معدتي انقلبت وكل شيء أكلته في وجبة الغداء كان يتدحرج في كل مكان في أحشائي.

قالت الآنسة دبليو، «لا، إن صوتي متعب جداً،» ومن غير ريب، فقد كان يبدو ضعيفاً وخشناً. «وكنا سنقرأ *ألكساندرا بوتمكين والمكوك الفضائي إلى الكوكب زد*، أيضاً. حسناً، إن ذلك مخيب للآمال.»

جلست الآنسة دبليو، وسندت رأسها على يدها، وكان جسدها يبدو مرهقاً، كما لو لم يكن صوتها فقط مرهقاً، وإنما كل عظمة من جسدها كانت بحاجة إلى راحة.

وتوسلت أليس ماي غروندرمان، «أرجوك؟»

وطلبت باتريس وسايمون في الوقت ذاته، «أرجوك، يا آنسة واشنطن؟» بالوجه ذاته ذي العينين المفتوحتين على اتساعهما.

ومن ثم فهم الجميع الفكرة، وأصبح ذلك نوعاً من الأغاني مع مقطع، «أرجوك، يا آنسة واشنطن» وجوقة تردد، «أرجوك، أرجوك، أرجوك.»

ولكن صوت الآنسة دبليو كان يتدهور بسرعة مخيفة، لأنها الآن لم يكن بإمكانها الكلام إلا بهمس أجش، واضطر الجميع إلى التوقف عن قول «أرجوك» فقط لكي يسمعوها.

«أنا آسفة، ولكن لا يمكنني ذلك.»

وتوقفت لبرهة، وكان بإمكاننا جميعاً أن نعرف من النظرة التي كانت تظهر على وجهها أنها كانت تفكر بصعوبة. لذا، فقد بقينا هادئين لنمنحها فرصة لذلك.

وقالت، «ربما،» وهي تنظر إلى الأعلى وتجبر نفسها على إظهار ابتسامة ضعيفة، «يمكن أن يكون لدينا قارئ ضيف، لهذا اليوم فقط؟»

حسناً، لقد كان من الصعب تخيل أي أحد يقرأ سوى الآنسة دبليو، وجلسنا جميعاً هناك لدقيقة. ومن ثم، واحد تلو الآخر، بدأ الجميع يومئون برؤوسهم وينظرون إلى بعضهم البعض، ويومئون أكثر ويبتسمون، وذلك لأنه لم يكن هناك أحد يريد أن يفوت وقت القصة، ولا حتى تينا بوليتي، التي كانت عادة تنام أثناء قراءتها.

وبعد مرور بضع دقائق من ذلك، بدأ الجميع ينظرون إلى الآنسة دبليو، ويومئون برؤوسهم بشدة، وقد برزت صدورهم إلى الأمام، ويقولون بصوت مرتفع، «أعتقد أن تلك فكرة رائعة» و«نعم ليكن هناك قارئ ضيف اليوم،» وذلك لأنهم كانوا يعرفون أنه ربما كان بإمكان أي منهم أن يكون القارئ الضيف والطالب النجم لفترة ما بعد الظهيرة. كانوا يريدون أن يذكّروا الآنسة واشنطن بأنهم لم يكونوا فقط قارئين ممتازين، وإنما كذلك أشخاص إنسانيون رائعون.

لا سيما كالفن «المغرور» فاريبولت، الذي رفع يده فعلياً، وكنت أعرف أنه كان سيتطوع، بسبب لطف قلبه الكبير، السمين، المغرور.

ولكن الآنسة دبليو لم تنظر حتى في اتجاه كالفن. وقالت لي بوهن، كما لو كان طلبها الأخير، «آيدا، نظراً لأنني أعرف أنك قد قرأت الكتاب، هل يمكنك، لو سمحت، أن تقرأي الفصل الأول اليوم؟»

حسناً، لقد أصبت بصدمة شديدة وشعرت بالإحراج، وجلست هناك وفمي مفتوح بكامله، لدرجة أنه لم يكن بإمكاني أن أعرف أن جميع الأطفال الآخرين كانوا يحدقون في وجهي وأفواههم مفتوحة بكاملها، أيضاً. إن تحويل الكلمات التي في القصة إلى موسيقى، مثل ما كانت الآنسة دبليو تفعل، كان هو الشيء الوحيد الذي أردت أن أفعله أكثر من أي شيء في العالم. ولكن رواية قصة بصوت مرتفع أمام صفي في مدرسة إيرنست بي. لوسن الابتدائية، كان تقريباً آخر شيء كنت أرغب في فعله في حياتي كلها. لقد كنت مرتبكة جداً بشأن ما إذا كان يتعين علي أن أكون سعيدة أم خائفة، لقد جلست هناك وحسب.

نهضت الآنسة دبليو ومشت نحوي، ووضعت وجهها بجانب وجهي المشدوه والمتجمد، وهمست، «آيدا، إنني بحاجة إلى مساعدتك.»

وهكذا كنت، منوّمة من قِبل تلك المرأة مرة أخرى. لقد كنت مثل الكلب الذي كان من شأنه أن يذهب ويحضر عصا الآنسة دبليو، حتى وإن كانت داخل جحر أفعى تحت شجيرة شوكية تم رشها للتو من قِبل ظربان.

نظرت إلى الآنسة دبليو وكنت خائفة الآن، لأنني كنت أعرف أنني كنت سأفعل ذلك، ولكنني لم أكن أعرف كيف.

وقالت بحشرجة، «أعلم أنك ستكونين رائعة.»

وكنت في رأسي قد بدأت بالفعل أهرول باحثة عن تلك العصا، على الرغم من أنه كان بإمكاني أن أشتم الرائحة الكريهة، وكانت الأشواك توخزني.

وسألت الآنسة دبليو، «هل تريدين أن تجلسي هناك أم على كرسيّ؟»

تمتمتُ، «سأجلس هنا.»

وضعت الكتاب على مقعدي، وأحضرت كرسيها، وجلست بجانبي، وألقت برأسها إلى الوراء، وأغلقت عينيها.

وقالت بصوت خشن، «ابدأي حينما تكونين مستعدة، يا آيدا.»

لقد أعطتني الآنسة دبليو، أصلاً، بضعة كتب لأقرأها، وذلك لأنها كانت تستغرق مني يوماً أو اثنين فقط على الأكثر، إلا إذا كنت أعمل في مشروعي ترويع الناس الذين اشتروا أرضنا. لقد كان *الكساندرا بوتمكين والمكوك الفضائي إلى الكوكب زد* هو كتابي المفضل حتى الآن. وكان الكتاب المفضل لدى روفوس، أيضاً، على ما أعتقد، لأنه كان يُنتِج ما يقرب من ربع غالون من البصاق لكل فصل كنت أقرؤه من ذلك الكتاب.

كنت أشعر بوخز في أصابعي وأنا أفكر في فتح الكتاب وقراءة تلك الكلمات بصوت مرتفع، وجعل صوتي يرتفع وينخفض،

وخشن وناعم، كما فعلت في غرفتي. ولكن ساقيّ كانتا ترتجفان كما لو كانتا في عاصفة ثلجية في الخارج، وكانت معدتي تنقلب إلى الأمام، ومن ثم إلى الوراء، إلى الأمام، ومن ثم إلى الوراء، وأنا أفكر بكل أولئك الأشخاص وهم ينظرون إلي ويسمعون صوتي.

أغلقت عينيّ، ووضعت يدي اليمنى أعلى الكتاب، ومررتها بخفة عبر الغلاف. لقد كان بارداً وناعماً مثل حجر من قاع الجدول، وقد جعلني ذلك أهدأ. وفكرت في نفسي، هناك عالم آخر بكامله في الداخل، وذلك هو المكان الذي أريد أن أكون فيه.

فتحت الكتاب، وتهيأت لقراءة العنوان، ولكن كان بإمكاني أن أشعر بأن عيون الجميع كانت مركزة عليّ، وكانوا يحشرونني لدرجة أنه بالكاد كان هناك أي هواء. وكانت الأصوات الوحيدة التي صدرت مني هي زقزقات صغيرة، مثل زقزقة العصفور الصغير «*ألكساندرا بوتمكين والمكوك الفضائي إلى الكوكب زد.*»

انحنت الآنسة واشنطن نحوي، وعيناها لا تزالان مغلقتين، وهمست، «يجب عليك أن تقرأي بصوت مرتفع أكثر، يا حلوتي، بحيث يتمكن الجميع من سماعك.»

وأجبت همساً، «نعم، يا سيدتي.» أخذت نفساً عميقاً، وملأت معدتي بالهواء، ومن ثم جعلت عضلاتي تخرجه بالضغط، فدفع زوبعة كبيرة من الرياح إلى حنجرتي وخارج فمي.

وصحت بصوت عالٍ، «الفصل الأول.» لقد كان صوتي عالياً جداً لدرجة أنه فاجأني، وقفزت قليلاً إلى الوراء في كرسيّ.

ولكن لم يضحك أحد. لقد كانوا يصغون.

الكتاب يتحدث عن ألكساندرا، ويعتقد أبواها أنها صعبة المراس، ولكنها في الواقع عبقرية تساعد العالم الاستاذ زيلينسكي، العبقري أيضاً، في سعيها لاستكشاف الكوكب زد المفقود. وتقع ألكسندرا في بعض المتاعب، ولكنها في الواقع إنسانة ذات تركيز شديد جداً.

في البداية كنت أشعر بالقلق بشأن كل أولئك الأشخاص الذين كانوا يراقبون ويصغون. ولكن بعد بضع دقائق، غادرت ذلك الصف ودخلت في القصة. لقد كنت في مختبر ألكساندرا، بدلاً من أن أكون في المدرسة، وكنت أذكر بصوت مرتفع كل شيء كنت أراها تفعله، أو كنت أشعر بأنها تشعر به. وجعلت صوتي يتحدث بالطريقة التي كانت هي تتحدث وتشعر وترى بها.

وكنت متشوقة جداً لمعرفة ما كان سيحدث بعد ذلك، ونسيت أنني كنت أقرأ. وفجأة، وصلت إلى نهاية الفصل، وكان ذلك كما لو أنه تم انتزاعي من حلم، ولم أتمكن من تذكر أين كنت بالضبط. نظرت حولي ورأيت أنني كنت أجلس على المقعد، وكان هناك كتاب أمامي، وكان الأطفال يحدقون في وجهي، وبالتدريج تذكرت.

رفعت نظري نحو الآنسة دبليو، فابتسمت وهمست، «شكراً جزيلاً لك، يا آيدا. لقد كان ذلك جميلاً.»

سلمتُ الكتاب للآنسة دبليو وعدنا إلى العمل، وكان كل شيء كما هو دائماً، سوى أنه كان يتعين على الآنسة دبليو أن تكتب كل التعليمات على اللوح بدلاً من التحدث به.

وفي وقت الدراسة عندما ذهبت إلى مقعد روني، نظر في عينيّ مباشرة وقال، «لقد قرأت بطريقة جيدة جداً، يا آيدا.» وكنت هذه المرة أنا التي أنظر إلى حذائي كما لو كان من الممكن أن يختفي إذا لم أستمر في مراقبته.

شعرت بانسداد في حنجرتي لدرجة أنني بالكاد تمكنت من أن أقول، «شكراً لك.»

لم يكن هناك أي شيء مختلف سوى التأجج الدافئ الذي كان في بطني وذراعيّ وساقيّ ورأسي، ولم يفارقني، حتى أثناء الجولة الطويلة إلى المنزل في الحافلة البغيضة.

الفصل 21

كان أب وأمي يسألاني كل يوم، منذ أن عدت لأول مرة إلى مدرسة إيرنست بي. لوسن الابتدائية، «كيف كانت المدرسة اليوم، يا آيدا بي؟»

وكنت أقول كل يوم، «لقد كان كل شيء مقبولاً (O.K)،» التي كانت الآن تعني كذلك كارثة عارمة (Overwhelming Kalamity).

«حسناً، ماذا فعلت؟»

وكنت أقول لهم الحقائق فقط، قاسية وباردة مثل قلبي. «أخذنا درس إنجليزي، ومن ثم أخذنا درس علوم، ومن ثم ذهبنا إلى الصالة الرياضية ...» بدون ارتفاعات وانخفاضات، أو أي جزء من نفسي الحقيقية هناك.

لقد كان الشيء ذاته كل يوم، وكان ذلك مملاً جداً وقديماً وجافاً، مثل الخبز البائت، ولم أتمكن من تصديق أنهما ظلّا يحاولان لفترة طويلة كما كانا يفعلان.

وبعد فترة من الزمن استسلما، وأصبحا يقولان فقط، «كيف حالك، يا آيدا بي؟»

وكنت أتمتم، «على ما يرام.»

وكان ذلك كل شيء. ولم أكن أعتقد أنهما كانا بحاجة إلى كلمات أكثر من ذلك لجعلهما يعرفان أنه لم يكن هناك أي شيء قريب من المتعة تطفو في أي مكان داخلي.

ولكن هذا اليوم كان مختلفاً. فالشعور الجيد الذي كان لدي من قراءة تلك القصة بصوت مرتفع، كان ينمو شيئاً فشيئاً طوال فترة ما بعد الظهيرة، إلى أن انتهى به الأمر ليكون سعادة كاملة عند وصولي إلى المنزل. ظللت أفكر في ما فعلته، وكيف كان شعوري إزاءه، وكانت البهجة الدافئة داخلي تصبح أكبر وأقوى وأكثر سطوعاً في كل مرة.

لقد أرادت ساقاي أن تقفزا لتخطي المدخل بدلاً من المشي. وأراد فمي أن يبتسم بدلاً من التجهم. وأرادت ذراعاي أن تعانقا أحداً بدلاً من ضم حقيبة ظهري إلى صدري مثل الدرع. وكان قلبي مهتاجاً.

إن تلك السعادة لن تكون راضية بالبقاء داخلي، كذلك. لقد أرادت أن يتم التشارك بها، ولم تكن تهتم بشأن من ستتشارك بنفسها معه، بمن في ذلك أمي وأبي.

لقد كان بإمكاني أن أتخيل تماماً أنني أتناول وجبة العشاء معهما، وكل أنواع المشاعر الطيبة تنساب مني. سأكون هناك، أبتسم

وأثرثر، والشيء التالي الذي تعرفون أنه لا بد أن يحدث هو أن أمي وأبي قد يعتقدان أنني قد تحولت إلى نفسي المرحة القديمة، وأن المدرسة كانت أفضل شيء حدث لي في حياتي، وربما أن كل الأمور قد سارت على ما يرام كما كانوا قد توقعوا.

وذلك من شأنه أن لا يكون مقبولاً.

لم أكن لأدع تلك الفرحة تجعلني أتنازل عن موقفي، على الرغم من أن الأشياء الجيدة قد تحدث في العالم من حين لآخر، فإنه لم يكن هناك شيء صحيح في عائلتي أو في واديَّ.

لذا، فقد حاولت أن أتخلص من بعضها قبل وقت العشاء من خلال إخبار روفوس ولولو عن مغامرتي في القراءة الجهرية. أجلست كليهما على سريري، وفي حين كانت لولو تحدق في روفوس بأكبر قدر ممكن من الازدراء، أخبرتهما القصة. ولكن هزتين من ذيل روفوس، وتثاؤباً ضجراً من لولو، لم يعملا على تهدئة ذلك الشعور على الإطلاق.

وفي الوقت الذي جلست فيه لتناول وجبة العشاء، كانت تلك السعادة تعمل شقلبات من الإثارة داخل معدتي. لقد كانت تهتز باغتباط مع احتمال إخبار أمي وأبي عن يومي. لقد كانت تتوق للتحدث عن كم كنت مسرورة مع الآنسة دبليو وعن القصص التي أعطتني إياها، وأكثر شيء عن قراءة *ألكساندرا بوتمكين والمكوك الفضائي إلى الكوكب* زد. وقد أرادت حتى أن تبدأ بالدردشة عن روني.

لقد حاولت أن أهرب قبل أن تتسرب مني أي فرحة.

وسألت، «إنني لست جائعة. هل تأذنان لي بالانصراف؟»

ولكن أبي كان جاهزاً لإفساد خطتي، وقال، «يجب أن تتناولي عشاءك، يا آيدا بي.»

وأضافت أمي، «تناولي شيئاً قليلاً، يا حلوتي.»

حسناً، عند تلك المرحلة، بدأ قلبي ينبض بمزيد من القوة محاولاً أن يكتم تلك السعادة ويهدئها، وقد كان يتقهقر بسرعة. أدركت أنه كان يتعين علي أن أخرِج بعضاً منها بحيث يمكنني كبح بقيتها داخلي، وأسيطر على مشاعري الداخلية من جديد.

ركزت على جزراتي، وأخذت أصفها بشكل عمودي بواسطة شوكتي، ومن ثم بشكل أفقي، ومن ثم على شكل خط متعرج، وصرحت بخبر سار صغير جداً.

قلت، «لقد قرأت كتاباً بصوت مرتفع لصفي اليوم،» وأنا أكافح للمحافظة على صوتي منخفضاً وهادئاً.

رفع أبي نظره وحدق في وجهي، كما لو أنه لم يعرف تماماً ماذا يفعل بحديث مقتضب صدر مني.

سألت أمي وهي تبتسم لي، «أوه، يا آيدا بي، هل أعجبك ذلك؟»

أومأت براسي فقط.

وواصلت أمي، «ما الذي قرأته؟»

قلت لتلك الجزرات، «مجرد كتاب عن فتاة.»

«هل كنت تعرفين الكتاب أم كانت تلك المرة الأولى التي تقرأينه فيها؟»

«لقد قرأته من قبل.»

«هل كنت خائفة وأنت تقرأين أمام كل أولئك الناس، يا آيدا بي؟»

هززت كتفي بلامبالاة، كما لو أن ذلك كان أمراً تافهاً بالكاد كان بإمكاني تذكره. «ليس تماماً.»

وسألت أمي، «هل كان ذلك رائعاً، يا صغيرتي.»

وبمجرد أن قالت أمي ذلك، شعرت بكل قطرة من الخير الذي جنيته من قراءة تلك القصة. لقد فاض في داخلي، ولم أتمكن من إيقاف السعادة من الانسكاب خارجي.

قلت، «نعم.»

بعد ذلك، نظرت مباشرة إلى أمي، ولأول مرة منذ ما بدأ وكأنه زمن طويل، ولم تكن تنظر إلي، وإنما إلى داخلي. لقد كانت تجذبني إليها بعينيها، كما اعتادت أن تفعل. وفجأة كان بإمكاني رؤية الضوء الذي كانت عينا أمي تشعان به. ولم أتمالك سوى أن أبتسم لذلك.

فنبهني قلبي، «كوني حذرة.»

ولكنني كنت أعاني من وقت صعب وأنا أتذكر أنه كان هناك أي شيء يجب أن أكون حذرة بشأنه، وذلك لأنني إذا نظرت فقط إلى عيني أمي ، وليس إلى رأسها الأصلع أو بشرتها الباهتة، كان بإمكاني أن أعرف أن ذلك الجزء منها الذي كنت أعتقد أنه قد ذهب للأبد كان لا يزال هناك يشع، وذلك من أعماقها فقط.

وذلك الجزء مني، الذي كان يعرف كم كان شعوراً رائعاً أن تُعانَق وتُحتضَن، كان متلهفاً. ولكن الآن، ولدي تلك الأنواع من المشاعر، قد أخافني، أيضاً. إن التفكير بأن أكون قريبة إلى أمي وبأن أحبها بذلك الشكل، وأنا أعرف أن الأمور كانت ستظل مرعبة، ومن ثم سيتعين علي أن أعتاد على البقاء بعيدة عنها وأن لا أحبها من جديد، سيكون أمراً صعباً للغاية.

وقال لي قلبي بألطف ما يمكنه، «ذلك يكفي.»

نظرت إلى الأسفل مرة أخرى، بعيداً عن توهج أمي، وعندئذ تماماً، كان كل الألم من الأشهر الماضية بداخلي وحولي.

حدقت بجزراتي، وقمت بترتيبها على شكل حرف X، وتم أخيراً تهدئة تلك السعادة وإسكاتها.

وسألت، «هل تأذنان لي بالانصراف الآن؟»

سألت أمي، «هل أنت متأكدة من أنك انتهيت من تناول وجبتك، يا آيدا بي؟»

قلت للطاولة، «نعم، يا سيدتي،» وانزلقت بهدوء عن كرسيّ، وخرجت من المطبخ، وصعدت إلى غرفتي.

وهذا مضحك، ولكن إخبار أمي وأبي ذلك القدر اليسير فقط اتضح أنه أسوأ من عدم إخبارهما بأي شيء. أن نكون في الغرفة ذاتها ولكن نتحدث إلى بعضنا البعض كما لو كنا على طرفي محيط، حوّل أفضل شيء إلى الشيء الأكثر وحدة. لقد كنت أفتقد أمي القديمة، وحتى أبي القديم، أكثر من أي وقت مضى.

الفصل 22

في ذلك السبت، جاء الدخلاء لزيارتنا. كنت أجلس في الشرفة الأمامية ورأيت سيارة غريبة، سيارة بيضاء كبيرة، تسير على الطريق وتنعطف إلى اليسار عند مفترق الطرق الذي على شكل حرف T، وتتجه نحو الأسفل إلى موقع المبنى، وتتوقف.

ركضت خلف منزلنا، وحول سفح الجبل، وخلال الغابة إلى أن كنت في الجهة المقابلة مباشرة لمنزلهم المكتمل جزئياً. تسلقت قيقب عجوزاً اسمها نوربيرت، ولم تكن يتحدث إلي، ولكنها لم تكن تجعلني أعاني من أوقات عصيبة، أيضاً. لقد كنت محاطة بأوراقها، وجلست هناك في الأعلى بحيث يمكنني أن أراقب أولئك الناس، ولكن لم يكن بإمكانهم أن يروني.

كانوا قد خرجوا للتو من سيارتهم، وينظرون في كل مكان حول خارج المنزل. كانت هناك أم وأب وصبي صغير وفتاة كانت أطول مني قليلاً، وكانت تبدو مألوفة جداً.

في البداية، كانوا جميعهم يمشون حول المنزل معاً، وكان الوالدان يقولان أشياء مثل، «أوه، راي، ألم ينتهِ هذا الأمر بشكل جيد؟» و«سيتعين علينا أن نتحدث إلى المقاول عن هذا،» ولكن لم أكن مهتمة بهما. وبقيت أراقب الفتاة.

بعد ذلك استدارت، ورأيت وجهها كاملاً وكانت الشمس تسطع عليه، أيضاً. كان يتعين علي أن أتمسك جيداً بأغصان تلك القيقب لأبقى متسمرة في مكاني عندما عرفت من كانت.

لقد كانت تلك الفتاة هي كلير، الفتاة التي في صفي، الفتاة التي سألتني ما إذا كنت أريد أن ألعب في أول يوم عدتّ فيه إلى المدرسة.

توجه الوالدان إلى الجانب البعيد من قطعة الأرض، ووجدت كلير وشقيقها تلة من التراب كانت الجرافة قد كومتها، فركضا فوقها، وتسلقاها، ومن ثم حاولا أن يعرفا ما هي السرعة التي كان يمكنهما النزول بها عنها بدون الوقوع.

كانا يضحكان وينظران حولهما ليريا ما هي أنواع المرح الأخرى التي كان بإمكانهما ممارستها، وقد كانوا جميعهم سعداء جداً.

وكان بإمكاني أن أعرف أن أحداً منهم لم يكن يتوقع أن هذه الأرض كانت مملوكة لشخص أخر، وأنه كانت هناك أشجار كانت تعيش هناك وكانت لها اسماء وكانت حيّة، وأنه تم قطعها ليكون من الممكن بناء هذا المنزل. ولم يكن أحد منهم يتوقع أن السبب الوحيد

لوجودهم هنا كان لأن أمي أصيبت بالمرض. ولكنني كنت أعرف كل ذلك.

وعندما انتهى هذان الطفلان من تسلق تلة التراب، بدآ بالتجول في كل مكان على قطعة الأرض، وسرعان ما عثرت كلير على إحدى لافتاتي على إحدى الأشجار.

وقالت للصبي الصغير، «أنظر إلى ذلك.»

وركض كلاهما ، وقرأتها له بصوت مرتفع. «هذه المنطقة مشهورة بحدوث التايفونات فيها. وتعج بجرذان الماء.»

سأل الصبي، «ما هو التايفون؟»

«إنه مثل الإعصار، ولكنني لا أعتقد أنها تحدث هنا.»

لقد تمعنا في لافتتي لبضع دقائق، من ثم أشار الصبي الصغير إلى جزء منها، وقال، «ذلك الجرذ مضحك،» وقهقه كلاهما معاً على الأنف الحاد والأسنان البارزة لجرذي.

شعرت بأن أعصابي تنتقل من الجيشان بهدوء إلى الغليان على نار خفيضة، هكذا بالضبط.

وصرخت كلير، «مهلاً، توجد واحدة أخرى هناك!» وتسابق الاثنان لينظرا إليها.

وقال، «تعجبني هذه أكثر.»

«وأنا، أيضاً، إنها أفعى جيدة إلى حد ما.»

«هل توجد حقاً أفاعي مثل تلك في هذه المنطقة؟» كانت عينا الصبي مفتوحتين على اتساعهما، وكان على وشك الشعور بالخوف.

ضحكت قائلة، «لا! هذه اللافتات هي عبارة عن ممازحات، ومن المفترض أن تكون مضحكة.»

قال، «أوه،» وضحك هو أيضاً، «لنرى ما إذا كان بإمكاننا أن نعثر على المزيد منها!»

وانطلقا كما لو كانا يبحثان عن كنز وهما ينتقلان من دليل إلى آخر، ويركضان ويضحكان، ويقضيان أفضل الأوقات. لقد أحبا لافتاتي. وكان الأمر يبدو كما لو أنني قد أعددت لهما لعبة، لعبة ترحيب بهما في الجوار.

وانتقلت في غضون ثانيتين، تقريباً، من الغليان على نار هادئة إلى غليان غاضب يجعل من الصعب بقاء الغطاء مكانه فوق الوعاء.

والآن، يمكنك أن تتوقع أن معرفة أن هذه الفتاة كانت في صفي، وتذكُّر أنها حاولت أن تكون لطيفة معي، ربما جعلني أهدأ، أو جعلني ألين قليلاً. ولكن ذلك أدى إلى العكس تماماً. ولسبب ما، فإن معرفة أن تلك الفتاة كانت لطيفة، ولديها أصدقاء، وتحب المدرسة، ولديها أم وأب وشقيق، ويفعلون أشياء ممتعة معاً، جعل كل شيء أسوأ بمائة مرة. وبمعرفتي أنها كانت هي التي كانت تبني منزلاً جديداً على أرضي، وأنها كانت هي التي قطعت الأشجار، وأنها هي التي ستتجول في كل مكان في واديّ ... حسناً، لم أتمكن من تحمّل ذلك. لم أتمكن من تحمله إلى درجة أنه لم يكن بإمكاني الجلوس بلا حراك، ولم يكن بإمكاني البقاء هادئة.

اقتربت كلير وشقيقها من الشجرة التي كنت أجلس فيها، وكانا لا يزالان يقهقهان ويتحدثان، وفي ذلك الحين تماماً احتدم غضبي، ولم أتمكن من كبح مشاعري حتى وإن أردت ذلك. قفزت من على الشجرة، ويداي تلوحان وفمي يصرخ، «هذه ليست ممتلكاتكم! أخرجوا من هنا! الآن!» ووقفت هناك، ويداي مرفوعتان على شكل حاجز، وأسناني مكشوفة، وتعبير شرس مرتسم على وجهي.

وتفاجآ جداً، وقفز كلاهما، وارتفعت أيديهما في الهواء، وتحولت أعينهما وفوهاهما إلى دوائر كبيرة. وبدأ الصبي الصغير بالبكاء، وللحظة انتاب جزء مني شعور شيء قليلاً.

ولكن، عندئذ، قال لي قلبي الجديد، «لا! إنهم هم السيئون! إنهم هم الغزاة! إننا لن نتخلى عن أي شيء آخر!» وتم إغلاق الجزء مني الذي انتابه شعور سيء على الفور.

حسناً، بدا الأمر وكأننا كنا سنقف هناك هكذا إلى الأبد. وأصبحت يداي الآن على شكل قبضتين، وانثنت ركبتاي، وكان بإمكاني أن أسمع صوت تنفسي، قوياً وثقيلاً كصوت وحش مخيف. ولم أكن سأتحرك إلا إذا كان ذلك من أجل الهجوم.

وأخيراً، تغيّر وجه كلير: استرخى فمها، وأصبحت عيناها أصغر، وحزينة نوعاً ما. وسألت، «آيدا؟» كما قد تتحدث ظبية لو كان بإمكانها ذلك، لطيفة وهادئة، وخجولة قليلاً. مثل يد ممدودة والكف إلى الأعلى.

وعاد ذلك الجزء مني مرة أخرى، الجزء الذي انتابه شعور سيء من قبل، معتقداً أنه ربما تكون له كلمة فيها، وقال، «خذيها، يا آيدا بي. خذي اليد الممدودة.»

ولكن قلبي القاسي والبارد لم يكن لديه أي شيء من هذه العاطفة الواهية. وصرخ، «لا! لا يمكن لأحد أن يتكلم.»

وأطلق جسدي زمجرة عالية، ووجهي مرفوع إلى السماء، الصرخة الأكثر شراسة والأكثر رعباً، والتي لم أكن أعرف حتى أنني أمتلكها داخلي. «غير مسموح لكم بالوجود على أرضي! إرحلوا!» وضربت ولكمت الهواء بقبضتيّ، كما لو كانتا تتوقان إلى سحق شيء ما.

وعندما فتحت عينيّ ونظرت إلى كليهما، استدار الصبي الصغير وهرب. وكان على وشك أن يقع لأنه كان يحاول أن يركض أسرع من ما كانت تقدر عليه ساقاه الصغيرتان القصيرتان. وكنت على وشك أن أضحك بصوت مرتفع، لأن شعوري كان فظيعاً إلى تلك الدرجة.

ولكنها كانت لا تزال واقفة هناك، تحدق في وجهي.

نظرت إليها، وعيناي مثل شقين، وترتسم على فمي ابتسامة سخرية، وصرخت، «ما الذي تنتظرينه؟ ألم تسمعيني؟ أنتم لا تنتمون إلى هذا المكان!»

ونظرت في عينيّ مباشرة، بعيني الظبية تلك اللتين كانتا تبكيان الآن، ولم تغادر كما كان من المفترض أن تفعل. وبدأت أفكر بأنني قد أضطر إلى فعل شيء عنيف في الحال، لأنني لم أتمكن من الوقوف هناك بنظرة شرسة وتنفس ثقيل إلى الأبد.

ولكن قبل أن أهتاج من جديد، قالت، لعينيّ مباشرة ولمشاعري الداخلية، «أنت حقيرة.»

واستدارت ومشت مبتعدة.

وقفت هناك، وقبضتا يديّ مشدودتان، ولا أزال أتنفس مثل الدب، ومتحفزة للصراخ عليها بكل أنواع الأشياء، «سيء جداً!» أو «ذلك صحيح! تذكري ذلك،أيتها الطفلة الكبيرة!»

ولكن في منتصف صدري بالضبط، حيث انتهت نظرة عينيها الشبيهتين بعيني الظبية، كان هناك ثقل جعلني أهدأ وأوقفني. وأراد ذلك الجزء العاطفي الوديع مني أن يقول، «أنا لست حقيرة. حقاً. عودي.»

ولكن قلبي الذي بقساوة الصخر لم يكن لديه أي شيء من ذلك، وصرخ، «أوقفي ذلك!» ولم يعد يُسمَح بوجود أي ضعف أو مشاعر أسف وحزن. لقد كنت حارسة الوادي، ولم يكن هناك أي داع للعاطفة المتهافتة.

عندما عدتُ إلى منزلي، من خلال الغابة وحول الجبل، كانت كل خطوة أخطوها ثقيلة ومرعبة، وكنت أضرب الأرض بقدمي. وفي كل مرة كانت قدمي اليسرى تنزل على الأرض، كنت أقول، «أنا.» وفي كل مرة كانت قدمي اليمنى تضرب الأرض، كنت أقول، «فزت.»

لذا، فقد كانت خطواتي طوال الطريق إلى المنزل تضرب الإيقاع لهاتين الكلمتين. «أنا ... فزت ... أنا ... فزت ... أنا ... فزت.»

الفصل 23

ذهبت لتناول وجبة العشاء في ذلك المساء وأنا متحفزة للشجار. لقد كنت أشعر بثقة إلى حد ما بعد انتصاري في ذلك الصباح، وكنت أعتقد أنني كنت مستعدة لمواجهة عدوي الأكثر رعباً: أمي، وعلى الأخص أبي.

ربما لم تكن هناك عودة إلى ما كانت عليه الأمور من قبل أن تصاب أمي بالمرض. ومن المؤكد أنه لم تكن هناك إعادة لتلك الأشجار التي تم قطعها. ولكن ذلك لم يكن يعني أنه لم تكن هناك فائدة من شعور هذين الشخصين بالبؤس بشأن الحزن والدمار اللذين جلباهما، وقراراتهما غير المقبولة تماماً وحنثهما بوعدهما في كل شيء، إلى الوادي وإلي. وذلك لم يكن يعني أنه لم يكن بإمكاني أن أبيّن لهما أنه كان هناك شخص ما في ذلك الوادي، وفي ذلك المنزل، يتذكر ما كان صحيحاً وجيداً، وكان اسمه هو آيدا بي. آبلوود.

لقد كان قلبي القاسي البارد في أفضل حالاته، ولم يكن يستثني سجناء، بمن فيهم المرضى أو المتعبون أو المثقلون بالأعباء.

لقد كان فقط سيقبل استسلاماً كاملاً يتضمن وعداً، وموقعاً من جميع الأطراف، وسيكون سارياً للأبد وأكثر، بأن الأمور كانت سوف تتغيّر هنا بشكل صحيح في تلك الدقيقة بالذات.

لقد كتبت الأمر بكامله في فترة ما بعد الظهيرة، ووضعت الوثيقة في جيبي الخلفي.

وبدأت «نحن الموقعون أدناه،» لأنني كنت قد بحثت عن شيء من ذلك القبيل في الموسوعة، «نعد رسمياً بأنه لن يكون هناك المزيد من:

بيع الأراضي،

أو قطع الأشجار،

أو قتل الأشياء،

أو إرسال الأطفال إلى المدرسة رغماً عنهم،

يسري العمل به فوراً.»

وكانت هناك مساحة لنضع تواقيعنا، وختم آيدا بي، خدمات آيدا بي القانونية العادلة تماماً والملزِمة للأبد، في الزاوية اليمنى في الأسفل.

لقد أعددت خطاباً لأمي وأبي، أيضاً، وحفظت كل شيء عن ظهر قلب. وقد بدأ بما يلي، «سوف أخبركما شيئاً حالاً، لذا من الأفضل لكما أن تصغيا ...»

وبمجرد أن أكون قد حصلت على انتباههما الكامل وغير المشتت، سأستمر في طرح أسئلة مثل، «ألا يمكنكما أنتما الاثنان أن كل شيء قد تغير في كل مكان هنا، وقد انتقل من مجرد أصح من الصحيح تقريباً إلى خطأ إلى حد بعيد جداً؟» و«ألا يمكنكما أن تلك الأشجار قد قطِعَت وانتهت للأبد؟» و«هل يمكنكما ولو بقدر ضئيل جداً أنني مجرد بائسة جداً؟»

كنت سأختم بسيخ من نظرة جانبية موجه مباشرة على أبي. وكنت سأقول، «لقد قلتَ إننا نحن من يقوم برعاية الأرض، وقلت إننا من المفترض أن نترك الأشياء أفضل مما وجدناها عليه. ولا أعتقد أن تلك الأشجار التي قطِعَت قد تقول إنكم اعتنيتم بها عناية جيدة، هل تعتقد أنت ذلك؟»

وبعد ذلك، عندما تبدأ الدموع بالتدفق وتنهال علي الاعتذارات من الطرفين، ويقول لي أبي وأمي، «ماذا يتعين علينا أن نفعل، يا آيدا بي؟ ماذا تعتقدين أنه يتعين علينا أن نفعل الآن لنحاول أن نجعل الأشياء في وضعها الصحيح؟» سأسحب تلك الوثيقة من جيبي الخلفي.

سنقوم جميعنا بالتوقيع عليها بقلمي الأحمر للدلالة على الدم، ولكن ليس حقيقة. ويمكننا أن نبدأ الحديث عن خطة لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي في كل مكان هنا.

كنت لا أزال أسمع تلك الجملة «أنا ... فزت» في رأسي وأنا أضرب الأرض بقدمي أثناء دخولي إلى المطبخ، وجلست، وخدمت نفسي كما أفعل دائماً.

وعندما انتهينا جميعنا من تمرير وسكب الطعام، تنحنحت لأجعل حنجرتي جاهزة لعبور جيش من الكلمات من خلالها. ووضعت يديّ على الطاولة، ونظرت إلى هذين الشخصين اللذين كانا يجلسان مقابلي، وفتحت فمي على اتساعه بحيث يمكن للكلمات أن تخرج كبيرة وعنيفة.

وقاطعتني أمي.

«آيدا بي، والدك وأنا لدينا شيء نريد أن نتحدث إليك بشأنه.»

كان فمي لا يزال مفتوحاً على اتساعه، ولكنه الآن معلق هناك من المفاجأة وقليل من الفزع، لأنني لم أضع في اعتباري حدوث مقاطعة.

قال أبي، «آيدا بي، كنا نفكر بشأن الحقل الجنوبي الذي لم يتم زرعه لفترة من الزمن، وبأنه ربما يكون مكاناً جيداً لزراعة المزيد من أشجار التفاح.»

وقالت أمي، «كنا نفكر بأنه يمكننا أن نقوم بتنظيفها وزراعتها، نحن الثلاثة، ربما في هذا الربيع عندما أشعر بتحسن. وبأنك ربما تحبين أن يكون بستانك، يا صغيرتي. لك أنت فقط. ستكون أرضك، وأشجارك، وتفاحاتك. ما رأيك، يا آيدا بي؟»

الآن، أولاً وقبل كل شيء، عندما تصبح متحفزاً بقدر ما كنت أنا متحفزة، فإن ذلك لا يتلاشى لمجرد أن شخصاً آخر يبدأ بالكلام. وثانياً من كل شيء، كان بإمكاني أن أفهم الخطة التي طبخها هذان الاثنان معاً، ولم أكن لأتناول قضمة واحدة منها.

لم أكن لأتظاهر بأن زراعة أشجار جديدة من شأنها أن تعوّض تلك التي تم قطعها. ولم أكن لأصدق أن بستان آيدا بي الجديد تماماً كان سيجعلني أنسى بيرنيس أو وينستون أوجاك على الإطلاق؛ وإعطائي قطعة من الأرض وبعض الأشجار التي لم أكن أعرفها حتى، لم يكن سيمحو الأشهر التي عانيت فيها من الموت والتدمير وعدم وجود حب ليملأ فنجان شاي.

وفي حوالى ثانية وثلث الثانية، حوّل عقلي ذلك الخطاب الكبير الطويل، الذي قضيت كل فترة ما بعد الظهيرة أجمعه معاً، إلى جملة واحدة خرجت من فمي بصوت مرتفع وقوي.

وقلت، «ليس هناك تعويض عن الأشياء المرعبة التي حدثت في هذه السنة.»

وظننت أن ذلك من شأنه أن يكون كل شيء، ولكن انتابني شعور جيد بقوله إلى درجة أنني تابعت الكلام.

قلت، وكان صوتي يعلو أكثر مع كل كلمة «لا يمكنكما أن ترجعا وينستون أو بيرنيس أو أن ترشواني ببستان جديد. ولا يمكنكما أن تجعلا كل شيء خطأ صحيحاً برقعة أرض وبعض

الأشجار الجديدة.» والآن كانت يدايّ تشيران وتلوحان، وجعلت عينيّ تبدوان كأحقر شقين كان بإمكاني عملهما.

ومن ثم فكرت بأقسى شيء يمكنني قوله لهما، وصرخت، «وكيف لي أن أعرف أنكما لن تبيعا الأرض على أي حال؟ وكيف لي أن أعرف أنكما لن تتركا تلك الأشجار الجديدة تتعرض للقطع، أيضاً؟ لقد حنثتما بوعودكما من قبل في حوالى عشرة ملايين طريقة عندما بعتما الأرض وأعدتماني إلى المدرسة. إذن لماذا يجب علي أن أثق بكما؟»

وكما حدث معي في وقت سابق من ذلك اليوم، كنت أتنفس بثقل وأنظر بعنف، وكان الشخصان يحدقان في وجهي، ولم أكن متأكدة تماماً ما الذي كنت سأفعله بعد ذلك. ولكن أبي حلّ تلك المعضلة لي.

لقد ضرب الشوكة بقوة لدرجة أن الطاولة اهتزت وارتجّت أكواب الحليب، وقفزت أنا في كرسيّ. كانت يداه مضمومتين على شكل قبضتين، وكان وجهه أحمر، وكان بإمكانك أن ترى تقريباً الدم يجري بسرعة خلال العروق الكبيرة التي كانت تبرز من ذراعيه وجانبي رأسه.

وبدون تفكير بذلك، كنت أجلس منتصبة، ويداي متمسكتان بجانبي كرسيّ، في حال قرر أنه لم تعد هناك ضرورة لوجودي في تلك الغرفة بالذات، وكان سيساعدني في إبعاد نفسي.

وقال، «آيدا بي،» من خلال أسنانه بدون تحريك شفتيه، وكان يبدو وكأنه يتحدث إلى صحنه، ولكنه كان يتحدث إلي.

حسناً، عندما يتحدث شخص ما وشفتاه لا تتحركان، فهذه ليست إشارة جيدة. دفعت كرسيّ إلى الوراء ووجهت قدميّ نحو الباب، في حال اضطرتا إلى البدء بالركض في ذلك الاتجاه بالذات.

أخذ أبي نفساً عميقاً، وكان بإمكانك أن تسمعه وهو يدخل من خلال أنفه، ودفعه ليخرج من خلال أسنانه فأصدر صوتاً يشبه الفحيح. ومن ثم أخذ نفساً آخر، ولم يكن صوت هذا النفَس عالياً جداً. وتحول لونه من البنفسجي الغامق إلى الأرجواني المتوسط. واستمر بالتنفس إلى أن تحول وجهه إلى أحمر فاتح، ومن ثم إلى زهري زاه، ونظر إلي.

وقال مرة ثانية، «آيدا بي،» وكان كفاه منبسطين على الطاولة الآن. «منذ أن أصيبت أمك بالمرض، كنت أغضب جداً، في بعض الأحيان، كنت أعتقد أنه كان بإمكاني أن أصرخ بصوت مرتفع جداً، ولفترة طويلة بحيث أن الجبل قد يتحول إلى كومة من الصخور الصغيرة. وفي بعض الأحيان كنت أشعر بالحزن الشديد، وكنت أعتقد أنني إذا بدأت بالبكاء فإنني ربما لن أتوقف أبداً.»

توقف أبي لبرهة، ولكن ذلك كان فقط ليحصل على المزيد من تلك الأنفاس المطهِّرة. وتابع، «لا أحد منا يحب ما حدث في كل مكان هنا، يا آيدا بي، ولكننا نحاول أن نتقبّل الوضع قدر استطاعتنا. وإذا بقينا غاضبين أو حزينين طوال الوقت، فإن الأمور ستبقى صعبة، ولكننا سنكون بائسين فوق ذلك كله.» نظر إلى الأسفل على صحنه مرة أخرى، ووضعت أمي يدها على ذراعه وبدأت تفركها.

بالكاد تحركت بوصة واحدة منذ أن ضرب أبي شوكته بقوة. كنت لا أزال أجلس هناك مثل تمثال ديستريسا الرخامي، والقديس الشفيع للخوف وانعقاد اللسان: الفم والعينان مفتوحون على اتساعهم، والذراعان والساقان متدلية، وكل شيء متصلب كلوح من الخشب.

وأخيراً، كسرت أمي حاجز الصمت، وقالت، «إننا نعلم أن الأمور كانت صعبة، يا حلوتي،» وهي تنظر إلي، ولكنها تمسك بأبي. «كان يتعين علينا أن نتحدث عن الأمر أكثر. أعتقد أننا جميعنا قد أصبحنا محاصرين بمتاعبنا ومخاوفنا، وظنّنا أن الحديث عن الأمر لن يساعدك أبداً.»

ابتسمت ووضعت كفها على خدّي، وكأنها مهد لوجهي. «إنني آسفة، لقد كانت هناك الكثير جداً من التغييرات القاسية، يا آيدا بي. وقد فعلنا ما اعتقدنا أنه كان الأفضل، في ضوء هذه الظروف.»

والآن، جزء مني كان يعرف أن هذين الشخصين اللذين كانا أمي وأبي، كانا يحاولان بكل قواهما أن يجعلا الأمور تعود إلى وضعها الصحيح. وجزء مني كان يعرف أنهما كانا يقولان لي إنهما يهتمان – بشأن تلك الأشجار، وبشأن الأرض، وبشأني أنا. وذلك الجزء مني ذاته كان يعرف أنه كان هناك شيء يسمى الحب يجلس مقابلي تماماً عبر الطاولة، عناق إن أردته، وحديث ومحاولة ومشاعر دافئة في اللحظة التالية فقط إذا قلتُ، 'حسناً.' وحتى إذا همست بها فقط.

ولكن، لقد كان ذلك الجزء مني صغيراً جداً الآن. وقد جعله قلبي يذهب ليعيش وراء ركبتي اليسرى بحيث لا يكون لديه فرصة كبيرة للتعبير عن رأيه.

ولكن قلبي القاسي البارد كانت لديه فرصة كبيرة للتعبير عن رأيه. لقد قال لي، بصوت مرتفع وواضح، «لا تدعي هذين الشخصين يدخلان هنا مرة أخرى.»

لذا، فقد نظرت مباشرة إلى أمي وأبي، ودفعت كرسيّ إلى الخلف، ووضعت ألف ميل بيننا.

وبدون السؤال ما إذا كان يمكنني الانصراف، وقفتُ، واستدرتُ، وذهبت إلى غرفتي، وأحكمت إغلاق الباب.

وقال لي قلبي، «عمل جيد، لقد فزت مرة أخرى.»

ولكنني استيقظت في منتصف الليل وأنا أشعر بآلام فظيعة تأتي من وراء ركبتي اليسرى. وبقيت ملازمة لي لبقية عطلة نهاية الأسبوع.

الفصل 24

حتى وإن كسبت معركة، فإنه طالما أن العدو يمتلك قلباً ينبض وعقلاً يعمل، فإنه من الأفضل لك أن تكون مستعداً لهجوم مضاد.

لذا، فقد كنت أستعد، طوال بقية عطلة نهاية الأسبوع وطوال جولة الحافلة إلى المدرسة في يوم الاثنين، لكلير وللعقاب. لقد كانت كلير ذكية، وكان لديها أصدقاء، وكانت ستجد طريقة ما، أعرف ذلك، لكي تنتقم مني لإخافتي لها ولشقيقها.

الآن، أنا لست بحاجة لأشرح ما الذي يحدث عندما تقرر شابة محبوبة وتتمتع بقدرة على الإقناع، مثل كلير، أنها سوف تلاحق شابة منعزلة، لا أصدقاء لها لتتكلم عنهم، ووقحة إلى حد ما، مثلي، في مكان مثل مدرسة إيرنست بي لوسن الابتدائية. واستناداً إلى كم كانت كلير ذكية وقاسية، وكم من الألم كانت تعتقد أنني أستحق، فإنني كنت أنتظر فترة من البؤس وجرح المشاعر يمكن أن تستمر لأسبوع أو، ربما، لباقي حياتي.

لقد حاولت أن أفكر في كل شيء ممكن قد تفعله كلير، لا سيما الأسوأ، الأشياء الأكثر إيلاماً، وأن أقرر كيف يمكنني إما أن أتجنب كل الألم والإذلال أو، على الأقل، أقنع نفسي بأن الأمر لم يكن في الواقع سيئاً إلى هذا الحد.

وحذرت نفسي، «ربما تهينك.»

ثم تخيلتها وهي تقول أشياء لي مثل، «أشتم رائحة كما لو أن آيدا قد جلبت الريف إلى المدرسة معها. هل تطعمين الخنازير، أم تتمرغين معها، أيضاً، يا آيدا؟» أمام حوالى عشرين طفلاً آخر.

تدربت على أن أقول لنفسي، «لا يهمني، لا يهمني إذا كانت كلير تقول إنني نتنة الرائحة أمام عشرين طفلاً. لا يهمني إذا ضحكوا جميعهم عليّ واخترعوا لي أسماء سيئة.»

واستدرت، في رأسي، وقلت لها، من فوق كتفي، «ليس لدينا خنازير، يا كلير.»

وتخيلت كلير تتعمد عرقلتي، وتتظاهر بأن ذلك حدث عن غير قصد، عندما نصطف للدخول من ساحة المدرسة، لذا، فإن جميع الصفوف الداخلة وجميع الصفوف الخارجة سوف يروني ملقاة على الأرض، ومنبطحة على وجهي، وذراعيّ وساقيّ ممددة مثل نجم بحر بأربع أرجل، والدم يتدفق من ركبتيّ وكوعيّ، وكدمة بحجم البطيخة تبرز من جبهتي.

وأكدت لنفسي، «لا يهمني إذا ظن الجميع أنني طائشة.» ومن ثم تخيلت أنني حذرة جداً ومنتبهة لوجود أجزاء جسد ممدودة أينما ذهبت.

لقد تخيلت حوالى مائتين وستة وسبعين شيئاً كان من الممكن أن تفعلها كلير لي، وكيف كان يمكنني حماية نفسي من إهانة مطلقة وكاملة في المائتين والست وسبعين حالة.

وأعتقد أن لا أحد يتفوق عليّ في إعداد الخطط.

عندما دخلت إلى الصف يوم الاثنين، حافظت على رأسي مرفوعاً إلى الأمام مباشرة وكأن شيئاً لم يحدث. ولكنني أجريت مسحاً للغرفة من زوايا عينيّ، ذهاباً وإياباً مثل كاسحة الألغام، بحثاً عن كلير الحاقدة.

عثرت عليها جالسة في مقعدها، وفي تلك اللحظة بالذات، التقت زوايا أعيننا، وتوقفت عن الحركة، وسجّلت أن العدو كان الآن ضمن مسافة تجعل الهجوم ممكناً، ومن ثم أشاحت كل منا ببصرها. مشيت إلى مقعدي. وتفقدّت مقعدي بتروٍ بحثاً عن أشياء حديدية حادة، ومن ثم داخل الدُّرج بحثاً عن علكة ممضوغة أو ديدان أو خضار متعفنة. لا يوجد شيء.

جلست وأعطيت عين واحدة ونصف عقل للآنسة دبليو، وكرست العين الأخرى والنصف الأقوى والأكثر حرصاً من عقلي لدراسة كلير.

ولكن مضى الجزء الأول من الصباح بدون أحداث أو حتى تلميح بانتقام.

لم تكشّر كلير في وجهي، أو تهمس لأصدقائها وتشير إلي. لقد كان الشيء الوحيد المختلف هو أنها لم تنظر إلي بشكل مباشر. كانت

دائماً تشيح بوجهها عني، كما لو كنت مسرحاً لحادث شنيع لم يكن باستطاعتها أن تجعل نفسها حتى تلقي نظرة عليه.

وعند الساعة العاشرة والنصف، كنت متأكدة من أنها كانت توفر ضربتها العنيفة لوقت الفرصة، حيث يوجد أقل قدر من رقابة الكبار، والقدرة على تجميع عصابة والكثير من الأدوات للإيذاء. وقد استغليت باقي الصباح في رسم خريطة لساحة المدرسة ووضعت خطة لطرق هروب متعددة.

لقد كان المكان الأكثر أمناً لا يزال هو مكان جلوسي على الدرجات. إذا جلست قريبة أكثر قليلاً إلى الأرض، يمكنني التقدم إلى الأمام، والقفز إلى أحد الجانبين، أو إذا كان لدي وقت لأفتح الأبواب، أختفي خلف الأبواب الكبيرة.

قامت الآنسة دبليو بجولتها التفقدية المعتادة، وأنا، تقريباً، لم أرها أو أسمعها، لقد كنت أراقب كلير بحرص شديد باستخدام رؤيتي الجانبية.

بعد ذلك توقف روني، وسألني، للمرة المائة تقريباً، إذا كنت أريد أن ألعب كرة المراوغة. وللمرة المائة أجبت، «لا، شكراً يا روني.»

ولكن هذه المرة بدلاً من الهمس بها بحيث لا يمكن لأحد أن يسمعني أتحدث مع أحد بطريقة وديّة، قلت بصوت مرتفع لأنني كنت مشغولة جداً. وشعر روني بالتغيير.

وسأل، «ما الذي تفعلينه؟»

قلت بانفعال، «لا شيء.»

«إنك تفعلين شيئاً ما.»

الآن، إذا كنت سأخبر أي شخص بأي شيء، وهذا ما لم أكن سأفعله، فإنه سيكون روني، على ما أعتقد. ولكنني إذا أخبرته بشيء واحد صغير، مثل، «أنا أراقب كلير،» فإنني سأضطر إلى إخباره بالكثير من الأشياء المتوسطة والكبيرة، مثل لماذا كنت أراقبها، وما الذي حدث في عطلة نهاية الأسبوع، أيضاً. ولم أكن مستعدة ليعرف روني ذلك الجانب الخاص مني.

لذا، فقد قلت فقط، «ليس الآن، يا روني،» فنظر إلي للحظة وهو غاضب نوعاً ما، ومن ثم ذهب.

واعتقدت أنه كان من الأفضل أن أجعل روني منزعجاً قليلاً من أن أعرض نفسي للتدمير والإهانة بقدر أكبر بكثير، فقط لأنني تخليت عن حرصي لثلاث ثوان وثلث الثانية.

لقد كانت كلير تعبث بأعصابي طوال الفرصة، متظاهرة بأنها لا تنوي على شيء. وعندما عدنا إلى الصف، كنت متعبة جداً من المراقبة والتخطيط، وكنت فقط أريد أن أضع رأسي على مقعدي وأغفو قليلاً. لقد افترضتُ أن لحظة من الضعف والإرهاق من جانبي كانت بالضبط هي الدعوة إلى الأذى الذي كانت تفكر فيه.

لذا، فقد أسندت رأسي على ذراعي، وقرصت فخذي ثماني مرات، تقريباً، وقمت بليّها بشدة مرة واحدة، وبقيت مستيقظة طوال فترة ما بعد الظهيرة التي خلت من أحداث من جانب كلير.

لقد كانت عبقريتها قد بدأت تتكشف لي.

لم تحاول كلير أن تنتقم مني في يوم الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس أو الجمعة، أيضاً. لقد كنت قد بدأت أشعر بالإرهاق من المراقبة والانتظار والتخطيط، ولم تظهِر هي ولا إشارة واحدة عن خطة لعقابي.

إذا كانت تقوم بتوزيع الأوراق، لم تكن تقم بتجعيد ورقتي أو رميها على الأرض. كانت فقط تضعها على مقعدي وهي تنظر إلى غرفة المعاطف. ولم تكتب ملاحظات عني على جدران دورة المياه، أو تترك أشياء لزجة في جيب سترتي، أو تطلب من والدتها أن تتصل بوالدتي وتناقش معها تصرفي. لقد كنت مرتبكة.

الحقيقة هي أنني أردت أن تنتقم كلير. أردت أن تثبت لي، ولأمي وأبي، والآنسة واشنطن، والعالم بأسره، أنها تستحق تماماً القليل من المعاملة الخشنة، وأكثر. أردت أن يتم تذكيري، كثيراً وبوضوح، بأن العالم كان بحاجة إلى حماية من أشخاص مثل كلير، وبأنه كان بحاجة لي لكي أحميه.

كلير لم تكن تتعاون.

الفصل 25

كانت هناك فكرة صغيرة تحاول جذب انتباهي، وظلت تكبر كل يوم، على الرغم من أنني كنت في معظم الوقت أرفض أن أوليها أي اهتمام.

لذا، فإنها تنتظر إلى أن تكون يقظتي قد تراخت، فتتسلل إلى الجزء الأمامي من دماغي. ومن ثم كانت تبدأ بسؤال يتظاهر بأنه ودود ولا يقصد أي شيء بعينه، مثل، «ماذا لو لم تكن كلير حقاً شريرة وبغيضة بكل ما للكلمة من معنى كما تعتقدين، يا آيدا بي؟»

ولكنني إذا تركت تلك الفكرة تحتل أي مساحة، وأعطيتها أي اعتبار، فإنها سوف تتابع بطرح بعض الأسئلة الأكبر والأصعب، والتي لم تكن سوى أسئلة مزعجة تماماً. وسوف تسأل، «ماذا لو أنك، عندما أخفت كلير وشقيقها، كنت تصرخين على الأشخاص الخطأ بشأن شيء خطأ في الوقت الخطأ، يا آيدا بي؟» أو «ماذا لو لم تكوني بطلة قاهرة كبيرة وقوية وصالحة في ذلك السبت في الغابة، يا آيدا بي؟ ماذا لو أنك قد تماديت كثيراً هذه المرة؟»

وإذا لم أوقف هذا عند ذلك الحد تماماً، فإنها سوف تزعجني بشدة بالفكرة الكبيرة، على الرغم من جعلها تعرف أنها لم تكن مرحّباً بها. وسوف تسأل، «آيدا بي، ماذا لو كانت كلير على حق وأنت مجرد شريرة جداً؟»

قررت أنني لن أهتم بالإجابة عن ذلك السؤال بالذات في ذلك الوقت بالذات.

ولمجرد أن تكون قد جعلت الفكرة تصمت، فهذا لا يعني، بالرغم من ذلك، أنك قد تخلصت منها. وقد كانت هذه الفكرة ذكية. لقد كانت مختبئة وصامتة، ولكن كانت مستعدة للهجوم في اللحظة التي كنت أترك فيها نفسي عرضة للخطر. وقد كانت تنال مني عندما أكون في أضعف حالاتي.

لقد قررت الآنسة واشنطن أن فكرة القارئ الضيف كانت فكرة جيدة، وكانت تقوم بمنح أطفال آخرين الفرصة للقراءة، بمن فيهم المغرورة. أعجبتني الفكرة أنا أيضاً، وذلك لأنها كانت تعني أن دوري سوف يأتي مرة أخرى في أحد الأيام، وكنت أتوق إلى الحصول على فرصة أخرى. ولكنني لم أدعها تعرف ذلك.

وعندما قالت الآنسة دبليو، في يوم الثلاثاء بعد حوالى أسبوع ونصف الأسبوع من قيامي بدوري لإنقاذ الوادي من الغزو، «دورك في القراءة على وشك أن يأتي، يا آيدا. ما هو شعورك بشأن قراءة الفصل التالي من كتابنا؟» لقد كانت الإجابة جاهزة منذ وقت طويل.

وقررت أن أقول، «حسناً،» دون أن أبدو متحمسة جداً، ولكن بدون ترك أي مجال للالتباس بشأن التزامي بالقراءة، أيضاً.

ذلك هو ما قررت فعله، ذلك هو ما كان فمي على استعداد لقوله، وذلك ما كان جسدي مستعد لفعله. ولكن عقلي فعل ما يلي بدلاً من ذلك: لقد فكر بـ كلير.

لقد فكر بشأن ذلك السحر الذي يحدث عندما تروي قصة بشكل صحيح، وكل من يسمعها لا يحب القصة فقط، وإنما يحبك قليلاً، أيضاً، لروايتك لها بشكل جيد. وذلك كما أحببتُ أنا الآنسة واشنطن، رغماً عني، في أول مرة سمعتها. فعندما تسمع شخصاً يقرأ قصة بشكل جيد، لا يمكنك إلا أن تفكر بأن هناك بعض الخير في داخله، حتى وإن كنت لا تعرفه.

وقد توقعت أن الشيء ذاته كان صحيحاً بالنسبة لي، وأن جميع أولئك الأطفال الذين لا يعرفونني، وحتى الآنسة واشنطن، التي بالكاد كانت تعرفني، ربما تفكر بأشياء لائقة عني، فقط لأنني جعلت صوتي، أثناء قيامي بالقراءة، يعلو وينخفض، يبطئ ويسرع، يصبح ناعماً وخشناً. وفقط لأنني جعلت تلك القصة تنبض بالحياة إلى حد ما بالنسبة لهم.

ولكنني كنت أعرف أن هناك شخصاً ما قد رأى جزءاً مني لم تره بقيتهم. ستكون جالسة هناك، تسمع صوتي يتوقف ويبدأ، ينزلق ويهتز، ولن تتأثر، فهي لن تثق في طيبة قلبي لمجرد أنه كان بإمكاني أن أروي قصة ما بشكل جيد.

وقد تقول كلير، «لقد رأيت آيدا الحقيقية، وقد كانت قاسية، وأنانية، ولاذعة مثل الليمون.»

كانت تعرف أنني كنت شريرة. وفجأة عرفت أنا ذلك، أيضاً.

وعرفت أنه لم يكن بإمكاني أن أقرأ في ذلك اليوم. شخص لديه قلب قاس كالحجر وبارد ويعجبه ذلك، شخص لن ينظر إلى الناس أو يقول، «شكراً لكم،» ويخيف الأطفال ولا يهتم إذا أخذوا يبكون، شخص لا يهتم إذا بكى العالم بأسره، لأنهم سيعرفون، على الأقل، كيف يكون ذلك الشعور، أيضاً، حسناً حتى وإن كان بإمكاني أن أقرأ الكلمات بصوت مرتفع، وأن أجعلها حلوة ومرّة، طويلة وقصيرة، مرتفعة ومنخفضة، فإن كل ما كنت سأسمعه في رأسي كان «أنت شريرة.» وكنت أعرف أنني لن أتمكن من تحمّل ذلك.

قلت للآنسة دبليو، «لا أستطيع. لا أشعر بأنني على ما يرام.»

«هل أنت متأكدة؟»

قلتُ لقدمي، «نعم يا سيدتي،» لأنه لم يكن بإمكاني أن أنظر في عينيّ الآنسة دبليو.

وضعت الآنسة دبليو يدها على ذراعي. «في وقت آخر، إذن، يا آيدا.»

همستُ، «نعم، يا سيدتي.»

لقد كان رأسي ثقيلاً، واضطررت لوضعه على طاولة مقعدي، وأصبح جسمي بارداً واضطررت أن ألفّ ذراعي حوله.

وكانت عينايّ متعبتين جداً، واضطررت لإغلاقهما بشدة حيث كان هناك حزن عميق جداً في داخلهما.

قرأت باتريس، وكنت مسرورة بنبرة صوتها في الحزن، ولم تكن للكلمات أهمية كبيرة، فقط الصوت.

الفصل 26

في يوم الأربعاء وأثناء الفرصة، جلست الآنسة دبليو إلى جانبي على الدرجات، كما يحدث دائماً تماماً. وكما يحدث دائماً تماماً، سألتني، «هل هناك شيء تريدين التحدث عنه، يا آيدا بي؟»

قلت على الفور، «لا، يا سيدتي،» وذلك لأن ذلك هو ما كنت أفعله دائماً.

والحمد للرب أن الآنسة دبليو كانت تبقى دائماً لبضع دقائق إضافية، وذلك لأنني كنت أفكر بأنني إذا لم أتحدث إلى شخص ما في أقرب وقت، فإن كل تلك الأشياء التي كنت أحملها في داخلي كانت ستنفجر بصراخ، مندفعة من خلال أجزائي الخارجية بحيث تتمكن من الحصول على بعض الهواء وتجد أذناً صاغية. وقد تكون هناك قطع صغيرة من صراخ آيدا بي تتناثر عبر النوافذ وفي شعر أطفال الروضة، وتهبط فوق الشطائر المكشوفة في الخارج والتي يفترض أن لا تأكلها.

قلتُ، «آنسة واشنطن؟»

«نعم، يا آيدا.»

كانت كل منا تنظر إلى الأمام مباشرة، كما لو كان ذلك لكي لا يعتقد أحد أننا كنا نتحدث معاً.

«هل سبق لك وأن فعلت شيئاً كان يبدو صحيحاً في وقت ما، ولكنه بدا فيما بعد أنه كان خطأ نوعاً ما؟»

كانت الآنسة دبليو تنتظر، كما لو أنها كانت تمنحني الكثير من المجال لأكمل، وذلك فقط في حال خطر في بالي شيء ما هام بعد وقت قصير.

وبعد بضع لحظات قالت، «نعم، حدث ذلك معي، يا آيدا.»

وسمحت كلتانا للراحة التي نجمت عن ذلك أن تستقر في داخلي لفترة وجيزة.

ومن ثم سألت، «هل سبق لك وأن فعلت شيئاً ما لأنك كنت مجنونة حقاً، مجنونة جداً وحزينة جداً لدرجة أنك اضطررت إلى محاولة فعل شيء لجعل الأمور تصبح أفضل، وقد بدا ذلك رائعاً في حينه، ولكنه بعد ذلك، وفي وقت لاحق، بدا أنه كان خطأ نوعاً ما؟»

هذه المرة، انتظرت الآنسة دبليو فترة أطول حتى. ولكن الآن، بدلاً من استحساني لانتظارها، كنت أتساءل ما إذا كانت قد أدركت أنها ربما لم تكن تريد أن تجلس قريبة جداً من شخص مثلي.

وقالت أخيراً، «نعم، حدث ذلك معي.» وعندما استرقت النظر إلى وجهها من زاوية عيني، كانت تبدو حزينة.

والآن توقفت لبرهة، لأن الأمر الكبير كان جاهزاً ليخرج متدحرجاً، ولكنني كنت خائفة من قوله بصوت مرتفع بحيث قد يسمعه شخص ما في العالم ويعرفه ويصبح حقيقة. لقد كانت مشاعري الداخلية لا تزال تهدر، وعرفت أنني كنت بحاجة لقوله وإلا سيكون الشيء التالي هو نثار من لحم وعظم آيدا بي تنهمر على ساحة المدرسة.

«هل سبق لك وأن فعلت شيئاً لأنك كنت غاضبة جداً ومنزعجة، وكنت تشعرين بغليان في داخلك، وكان يتعين عليك أن تخرجيه، وبدت تلك فكرة جيدة في حينه، ولكن بعد فترة قصيرة بدت أنها لم تكن جيدة جداً؟ وماذا فعلت، حسناً إن... إن ...» ـــــ والآن كنت أنظر بتمعن شديد جداً إلى البيت الأزرق عبر الشارع، ولم أكن أرى أي جزء حتى من الآنسة دبليو عند طرف مقلة عيني ـــــ «... لقد جعل ذلك الناس يبكون، ويعتقدون أنك شريرة.» كان صوتي يتوقف ويتقطع، لذا، فقد سمحت له بالاستراحة للحظة.

وتابعت بهدوء أكثر قليلاً، «وما كنت تريدين حقاً أن تؤذي أي شخص. لقد أردت فقط أن تتوقف الأشياء السيئة.»

أخذت نفساً عميقاً ونظرت إلى الأسفل على حذائي، وكل شيء آخر كان يجب قوله تدحرج خارجاً مني. «وبعد أن تفعليه لم

تخبري أحداً آخر، والآن أنت تشعرين كما لو كنت بالوعة مسدودة ومليئة بالمياه الوسخة وشعر القطط والشوارب القديمة، وإذا لم يقم أحدهم بإحضار أداة الشفط بسرعة، فإن هذه المياه القديمة الآسنة سوف تفيض على كل شيء.»

والآن، لقد كان ذلك تقريباً أطول سؤال سألته في حياتي، وقد استغرق الأمر مني دقيقة لكي ألتقط أنفاسي عندما انتهيت منه كله. وبمجرد أن أصبحت تلك الكلمات خارجي، انتابني على الفور شعور أفضل من ذلك الذي كنت أحس به منذ فِترة. وذلك الفراغ في صدري والذي اعتاد قلبي أن يملأه، كان يشعر بدفء أكثر وممتلئ أكثر قليلاً مما كان عليه منذ زمن طويل. وقد أعجبني ذلك.

ولكنني كنت كذلك لا أزال خائفة مما يمكن أن تفكر الآنسة دبليو، وأنتظر منها أن تقول شيئاً. لقد كنت أنظر إليها نظرة جانبية، وأشعر بقلق شديد.

راقبتها وهي تضع مرفقيها على ركبتيها. ومن ثم وضعت يديها معاً بحيث كانتا تضمان بعضهما البعض. كان رأسها قد انخفض للأسفل، وكانت تدفع بإصبع قدمها الكبير داخل حذائها ذهاباً وإياباً، تماماً مثل روني.

وقالت، «آيدا،» بكآبة وبطء مثل الماء في قعر النهر، «لقد فعلت شيئاً يشبه ذلك إلى حد كبير.»

حسناً، لقد شعرت بارتياح كبير، وذلك لأن الآنسة دبليو قد فهمت، وكانت لا تزال تجلس هناك بجانبي، وفجأة شعرت كما لو كان قلبي خفيفاً وحراً ويرتفع ويأخذني معه.

لقد ارتفعت لإنشين فقط عن الأرض، ومن ثم هبطت عائدة إلى ذلك الإسمنت مرة أخرى، وذلك لأنني عندما نظرت إلى الآنسة دبليو بالكامل، كانت تحدق في البيت الأزرق، ولكن وجهها كان متعباً وحزيناً، وكانت تبدو أكبر بحوالى عشر سنوات في خلال عشر ثوان من الزمن. كانت تتذكر، ومن ثم كنت أنا أتذكر، أيضاً.

عاد الحزن يغمرني، وعرفت أنه يجب علي أن أقول شيئاً ما آخر، أو ستعلق كلتانا في ذلك الحزن مع بعضنا البعض حتى نهاية فترة الفرصة، على الأقل، وربما يستمر دائماً.

سألت، «ماذا فعلت بشأن ذلك؟» نظرت الآنسة دبليو إلى يديها المتشابكتين كما لو كانت هناك إجابة داخلهما لو تمكنت فقط من فتحهما.

وقالت، «حسناً، يا آيدا،» بصوت منخفض وواثق كما لو كانت لديها معرفة عميقة، «كان يتعين علي فقط أن أقول آسفة.»

وذلك كان كل شيء.

كان ذلك هو كل ما قالته، كل ما قالته أي منّا لباقي فترة الفرصة. لقد جلست هناك بجانبي، وكلتانا تنظر نحو الخارج، وترمش أعيننا بين الفينة والأخرى، وتركت ما قالته لي يستقر داخل قلبي. وبعد دقيقتين، تدحرج السلام خارجاً من ذلك المكان إلى كل جزء مني، وذلك إلى درجة أنه حتى رأسي شعر بخفة وبدوار خفيف. وعندما قرع الجرس قفزت كلتانا قليلاً.

وضعت الآنسة دبليو يديها على ركبتيها ونهضت. وقالت، «حسناً، لنعد إلى الداخل.»

قلت، «نعم يا سيدتي،» وأنا أقف أيضاً، وكانت لا تزال كلتانا تنظر إلى الأمام.

مشينا عائدتين إلى الغرفة وهي تتقدمني قليلاً. كان بإمكاني أن أشعر بنسمات جسدها على وجهي، وكان بإمكاني أن أشتم رائحة زبدة الفول السوداني وأزهار الصيف.

الفصل 27

وعلى الفور بدأت أخطط.

وقررت، سوف أعتذر، ولكنني لم أتخلَّ عن عزمي على تجنب أي ألم ممكن أو إهانة علنية في مدرسة إيرنست بي لوسن الابتدائية.

ذلك يعني أن يكون مقتضباً. ذلك يعني أن لا يكون هناك أصدقاء، أو زملاء في الصف، أو معلمات، أو أبوان، أو أمناء صندوق في متجر كبير في الجوار أو على مرمى السمع. ذلك يعني طرق هروب متعددة وخططاً احتياطية.

والآن، هناك تقريباً مليون طريقة ممكنة كان بإمكان كلير أن ترد بها على «أنا آسفة.» و خمسين بالمائة، تقريباً، من تلك الردود الممكنة كانت ردوداً لطيفة ولائقة، مثل، «لا بأس، يا آيدا. لا توجد مشكلة.» حسناً، ومن بين كل تلك الآلاف والآلاف من الردود الودودة أو القلبية أو مجرد رد متسامح كان من الممكن أن تقدمه كلير

إلي، لم أتمكن من التفكير سوى بثلاثة ردود. ولم أكن أعتقد أن واحداً من تلك الردود الثلاثة كان سيحدث.

ومع ذلك، لم تكن لدي مشكلة في التفكير في الردود السيئة ــــ الردود التي كانت تجعل الحشود تضحك، أو تجعل أجزاء الجسم تختفي، أو أشياء متعفنة ذات رائحة كريهة، تظهر باستمرار في أشيائي الشخصية.

وكان بإمكاني أن أسمع كلير تقول أمام حشد مكون من مئات الأشخاص، «أنت أفعى، يا آيدا آبلوود، أفعى خسيسة خضراء متملقة. لذا، انزلقي عائدة إلى جحرك وابتلعي بعض الفئران المليئة بالديدان، والتي تحمل مرضاً قاتلاً بحيث تصابين به ويتحول جلدك إلى اللون الأخضر ويتجعد، وتجحظ عيناك وتنفجران، وتموتين أكثر ميتة مؤلمة وبشعة يمكن تخيلها.»

لا، لم تكن لدي مشكلة في التفكير بالردود السيئة. وحيث أن معظم الردود السيئة كانت تتضمن نوعاً ما من الإذلال التام والمرعب أمام مجموعات كبيرة من الكبار والصغار، فإن أهم أولوياتي كانت اكتشاف طريقة لإحضار كلير لوحدها.

ولكنك لا تكون وحيداً في المدرسة أبداً. أبداً، إلا ربما لبضع ثوان. وبالتأكيد ليس في الغرفة الصفية أو في ساحة المدرسة، أو في المكتب أو المسرح أو الصالة الرياضية. وحتى في دورة المياه، هناك دائماً، تقريباً، طفل من الصف الأول ذو مثانة صغيرة اضطر أن يذهب إلى دورة المياه في الوقت ذاته الذي تذهب أنت فيه.

لم تكن هناك سوى خزانة المنظفات التي تضمن الخصوصية، ولكن ذلك كان يعني سرقة مفتاح واختطاف كلير، وإغلاق الباب بدون تركها تصرخ بأعلى صوتها، وإقناعها، بطريقة أو بأخرى، أن لا تخبر أحداً عني أو تلكمني، وإعداد اعتذار هناك في الداخل، أيضاً. كل ذلك في أقل من خمس دقائق.

وبعد دراسة خياراتي بعناية، قررت أن دورة المياه كانت توفر لي أفضل فرصة لتحقيق النجاح، إذ من الممكن لشخصين فقط أن يدخلا في كل مرة. وإذا كان بإمكاني أن فعل ذلك بحيث يتصادف أن يكون هذان الشخصان هما أنا وكلير، وإذا تصادف، في تلك اللحظة، أن يكون أولئك أصحاب المثانات الصغيرة في الصالة الرياضية أو في غرفة الطعام، فربما أكون قادرة على أن أحظى بلحظة من الانفراد المطلق بها، فقط بما يكفي لـ«أنا آسفة» مقتضبة.

عند المغسلة، أو ربما من الأفضل أكثر، عند مقعد الحمام المجاور لها، سوف أقول، مع ذلك الفاصل المعدني بيننا، «كلير؟»

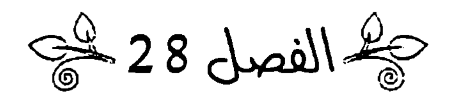
«من هناك؟»

«آيدا.»

«ماذا تريدين؟»

«أنا آسفة بشأن ذلك اليوم في الغابة.»

وبعد ذلك أكون قد انتهيت من الأمر. كان بإمكانها أن تغلق الباب بقوة، وتشد سيفون المرحاض إلى أن يفيض، وتبصق تحت الفاصل. لن أهتم. لقد قمت بفعل ما كان يجب علي فعله، وسأكون في طريق العودة إلى غرفة الصف.



الفصل 28

إذا كنت تريد تعمّد لقاء شخص ما في دورة المياه، فإن لديك، في أحسن الأحوال، فرصتين يومياً: واحدة في الصباح وواحدة بعد الظهر.

في صباح يوم الخميس، خدعتني كلير. فقد كنا في منتصف وقت الفراغ، حيث كان بإمكاننا المشي حول الغرفة بدون الحصول على إذن. وهكذا، بدلاً من رفع يدها وطلب إذن، ذهبت مباشرة إلى طاولة الآنسة دبليو وتحدثت إليها، وكانت في الخارج. وفي الوقت الذي أدركت فيه ما الذي كان يجري، طلبت جودي ستوتربادن إذناً، أيضاً، وكنا قد بلغنا الحد المسموح به.

لقد ضاعت فرصة الصباح، وركزت على فترة ما بعد الظهر.

وبعد الغداء، أثناء فترة القراءة الصامتة، وبمجرد أن ارتفعت يد كلير، ارتفعت يدي وهي تلوح قليلاً بحيث لا يمكن تجاهلها.

قالت الآنسة دبليو، «نعم، يا كلير.»

«هل من المفترض أن نقرأ القصة حتى النهاية، أم فقط حتى نهاية الفصل؟»

لم يكن ذلك هو السؤال الذي كنت أنتظره. جذبت ذراعي بشدة إلى الأسفل ودسست يدي تحت المقعد بحيث تنسى الآنسة دبليو أنه قد تم رفعها.

قالت الآنسة دبليو، «حتى النهاية، يا كلير.» ومن ثم استدارت نحوي، «هل كان لديك سؤال، يا آيدا؟»

والآن، إذا قلت «لا،» فإن كلير الذكية سوف تظن أن هناك شيئاً ما يحدث، وذلك لن يكون جيداً. ولكنني لم أكن قد خططت لهذا التحول الاستثنائي في الأحداث. وفعلت أفضل ما كان بوسعي.

«إمم، كنت أتساءل في أي صف يجب أن تعرف كيف تهجئ كلمة 'مأزق'؟»

عشرون رأساً استدارت لتنظر إلى الشخص الذي كان سيطرح مثل ذلك السؤل. عشرون دماغاً بدأت تحوّل ذلك السؤال إلى إغاظة لاذعة. وأنا متأكدة من أن عشرين جسداً كانت على استعداد للقفز علي بمجرد أن أخرج من الباب في الساعة الثالثة. يبدو أن جهودي التي بذلتها لتجنب التعرض للإذلال قد ذهبت أدراج الرياح.

ابتسمت الآنسة دبليو. «لا أعرف أن 'مأزق' موجودة على أي قائمة معينة من قوائم التهجئة، يا آيدا، لماذا؟»

شعرت بشلل، وبوهج حار في وجهي، ولم يكن بإمكاني سوى النظر إليها وقد أصابتني صدمة بشأن ما فعلته. ولم تفعل الآنسة دبليو، ولله الحمد، أي شيء حيال ذلك.

وبينما كنت لا أزال في حالة الصدمة، لم ألحظ حتى، بعد دقيقتين، متى رفعت كلير يدها، وطرحت سؤالاً آخر، وغادرت الغرفة. كنت قد بدأت للتو بالتصرف بشيء قريب من الطبيعي مرة أخرى عندما رأيتها تعود وتدخل الغرفة من جديد.

عند الساعة 2:12 مساء، تلاشت فرصتي الأخيرة للوصول إلى هدفي في يوم الخميس.

وفي يوم الجمعة، كنت أذهب حيثما تذهب كلير، على بعد حوالى ثماني خطوات ونصف الخطوة وراءها. وعندما كانت تتصفح كتباً في مكتبة الصف، قمت ببري قلمي الرصاص إلى أن أصبح مجرد رأس مدبب وممحاة. وفي كل مرة كانت تمشي بالقرب من طاولة الآنسة دبليو، كنت اتخذ وضعية العداء عند خط البداية: الساقان مثنيتان، والرجل اليمنى تتقدم إلى الأمام، والقدمان مستعدان للقفز، والذراعان مستعدتان للارتفاع والانخفاض في الهواء.

عند الساعة 10:27، قالت السيدة دبليو، «آيدا، هل يمكن أن تأخذي هذا النموذج إلى المكتب، من فضلك؟»

لقد كان ذلك الآن توقيتً سيئاً. ارتخى جسدي ورمقتها بنظرة قالت،» هل يجب علي أن أفعل ذلك؟» بدون أن أنطق الكلمات.

«آيدا، من فضلك.» ومدت يدها إلي وهي تحمل النموذج ، وعاد رأسها إلى عملها. وبمجرد أن وصلت إلى الردهة، ركضت بأسرع ما يمكن إلى المكتب، وأبطأت إلى المشي قبل عشرة أقدام من الباب، ووضعت النموذج في مكانه، وركضت عائدة إلى الصف. لقد كان رأسي على وشك أن يلتف المسافة كلها حول رقبتي بحثاً عن كلير. ومن المؤكد، تماماً كما كنت أخشى، أنها قد ذهبت.

شعرت بنسيم خفيف على ظهري، استدرت، وكانت هناك، لقد عادت من جولتها الصباحية.

كلير لم تذهب طوال فترة ما بعد الظهر. راقبت وانتظرت، ولكنها انتظرت أكثر.

قبل عشرين دقيقة من انتهاء اليوم، أدركت أنني أنا نفسي كنت بحاجة لاستخدام الحمام، بشكل مُلحّ. لقد كنت أركز جداً على كلير بحيث أنني لم ألحظ أن الضغط كان يتزايد، وكان من المستحيل أن أتمكن من التحمل طوال الطريق إلى المنزل، مع الارتطام والاصطدام فوق الحفر التي على الطريق، في تلك الحافلة.

أعطتني الآنسة دبليو الإذن، الخروج بدون انتظار. ومن ثم مشيت بتثاقل، مع المحافظة على قدمي منخفضتين على الأرض بحيث أنك لا تتعرض لارتداد، إلى دورة المياه، تدبرت أمري، وفتحت باب المرحاض وأنا أشعر مائة بالمائة أفضل، وقفزت إلى الأعلى في الهواء مباشرة.

كلير ديلونا كانت تقف أمامي بالضبط، وذراعاها ملتفتان على بعضهما البعض، وتستند إلى المغسلة. كانت تنظر في وجهي مباشرة، وتنتظرني، وحدها، كما كنت أحاول أن أفعله معها طوال الأسبوع. ولو أنني كنت قد أصبت بالصدمة بشكل أقل، لكنت استدرت وأقفلت باب المرحاض، ولكنني كنت قد تحولت إلى حجر. لقد كنت مثل تمثال المفاجأة، فينوس الفزع.

لقد تم التفوق عليّ في تدبير الخطط.

سألت، «لماذا تقومين بتتبعي؟»

فمي، الذي كان معلقاً وهو مفتوح على اتساعه، أغلق نفسه للحظة، ومن ثم استسلم وتعلق هناك مرة أخرى.

وقالت، «هل تحاولين أن تفعلي شيئاً شريراً آخر لي؟»

حسناً، لقد قمت بالتركيز بشدة على مقابلة كلير لوحدها، وقد كنت فقط قد أصبت بذهول شديد من ذكائها المتفوق، ومن أنها كانت تعتقد أن ملاحقتي لها كان من أجل أن أفعل شيئاً قذراً، لدرجة أنني لم أتمكن من تذكّر ما أردت أن أقوله لها.

أثناء وقوفي هناك ويداي ممدودتان، ورأسي يهتز، وفمي يغمغم بكلام غير مفهوم، «أنا   أنا   أنا ...» أشاحت كلير بوجهها.

وعندما خرجت من باب الحمام، قالت لي وهي تصرخ، «فقط دعيني وشأني!»

وذلك ما حدث لي. أسبوع من التخطيط وبذل أقصى جهودي، وكل شيء كان أسوأ بدلاً من أن يكون أفضل.

لقد أمطرت بعد ظهر ذلك اليوم وطوال المساء، ذلك النوع من المطر الذي يوخز عندما يضرب جلدك. وقد كان لذلك أثر طيب تماماً عليّ.

الفصل 29

في صباح يوم السبت، كنت جالسة في الشرفة الأمامية، لا شيء أنتظره، ولا شيء أريد أن أفعله. جلس روفوس إلى جانبي لفترة قصيرة، آملاً أن أنشغل بشيء ما أكثر من التعاسة. ولكنه سئم الانتظار وذهب في حال سبيله، تاركاً بحراً صغيراً من البصاق حيث كان يجلس.

وبالضبط عندما كنت على وشك الذهاب إلى السرير، ومحاولة بدء اليوم مرة أخرى من جديد في فترة ما بعد الظهر، رأيت سيارة بيضاء كبيرة تدخل الطريق وتنعطف يساراً عند مفترق الطرق الذي على شكل الحرف T. وعرفت على الفور ما كان يتعين علي فعله.

لا خطط. لا تدبير مكائد تنطوي على أقل قدر ممكن من الألم والإذلال، مجرد القيام بالفعل بشكل صريح ومباشر.

وبمجرد أن اختفت السيارة البيضاء في مدخل عائلة ديلونا، استعدت نشاطي وتوجهت نحو الخارج من خلال الحقول، ومن ثم حول سفح الجبل.

ومشيت خلال البستان، وعيناي شاخصتان إلى الأمام، ولم أكن بطيئة ولا مسرعة، أيضاً، كما لو كنت في طريقي إلى المواجهة الحاسمة الأخيرة. نعم لقد كانت هناك مجموعة منهم، وأنا لوحدي فقط. نعم، ربما ينصبون لي كميناً، وربما لن أعود سالمة. ولكنني كنت سأتقبل أي شيء كان يرغب أولئك الناس في إغداقه علي، لأنني كنت ذاهبة لأفعل الشيء الصحيح.

توقفت بالضبط قبل أن تطأ قدماي الأرض التي كانت الآن تخص عائلة ديلونا، وأخذت نفساً عميقاً أثناء ما كنت أمشي على خط الحدود الوهمي ذلك.

وهناك كانت كلير، تنظر إلي، وتنتظرني. وكانت والدتها وشقيقها الصغير يجلسان القرفصاء بجانب المنزل، ويزرعان شجيرات صغيرة.

طق طق طق كان الصوت الوحيد الذي كانت قدماي تصدرانه في هذه المرة عندما كنت أمشي نحو كلير، وذراعاي بعيدتان عن جنبيّ وكفايّ يتجهان نحو الأعلى، ولأجعلها تعرف أنني لم أحضر من أجل الشجار، وحتى إن كان لديها بعض المتاعب والمعاناة التي كانت تريد أن تسببها لي.

رأتني والدة كلير ووقفت، ونفضت التراب عن يديها، وأخذت تراقبني أثناء توجهي نحو كلير. ومن ثم كان العالم كله ساكناً باستثناء نحن الاثنتين.

قلت، «كلير،» وأنا أنظر في عينيها مباشرة، «أنا آسفة لأنني أخفتك في الغابة. أنا آسفة لقد كنت شريرة معك. لقد كنت أتبعك

في المدرسة بحيث يمكنني أن أعتذر. أنا ... أنا ...» وها أنا أثرثر مرة أخرى. هل يجب علي أن أخبرها عن أمي والأشجار والمدرسة وكل شيء؟ أين كان يتعين علي أن أبدأ إذا كنت سأشرح لها كل شيء؟

ومن ثم خطرت الآنسة دبليو على بالي، وكنت أعرف أن ذلك لا يهم حقاً.

قلت، «إنني آسفة حقاً.»

أحياناً، في أيام الربيع، تكون هناك الشمس الأكثر إشراقاً ودفئاً، والغيوم الأكثر سواداً ومطراً تتشارك السماء معاً. وسوف تتساءل طوال اليوم، «هل ستمطر؟ هل ستشرق الشمس؟» وذلك هو ما كنت أفكر فيه عندئذ، عندما كنت أنظر إلى وجه كلير. لقد كان كل شيء هناك، ولكن لم يكن أي شيء يحدث بطريقة أو بأخرى. ولكن، لم أعد قادرة على البقاء في المكان منتظرة لأعرف ما الذي سيحدث، وذلك لأنه كان لدي شيء آخر يجب أن أفعله.

والتفت إلى شقيق كلير الصغير، الذي كان يلف ذراعه حول ساق والدته، وكان بإمكاني أن أعرف أنه كان خائفاً مني. لقد كان يعتقد أنني كنت وحشاً، تماماً كما أردته أن يعتقد.

وقلت، «آسفة أنني أخفتك. لن أفعل ذلك مرة أخرى أبداً. أعدك بذلك.»

وحدق في وجهي فقط، أيضاً. ولو أنني كنت فتاة جاهلة لظننت أن أفواه هذه العائلة كانت تحت التصليح.

لقد كان من الصعب جداً الانتظار هناك ليقرر أولئك الناس ما إذا كانوا يريدون أن يخبروني بشيء، ولم أكن متأكدة تماماً من أنه كان بإمكاني تحمّل سماع الكلمات التي ربما كانوا يريدون أن يقولوها على أي حال. لذا، فقد استدرت باتجاه البستان وبدأت رحلة العودة إلى المنزل.

لقد أعددت نفسي لكمين ديلونا من خلفي، وقررت أنه عندما يجدني أبي وأمي، وأنا في الرمق الأخير، فإن كلماتي الأخيرة ستكون، «رجاء، حوّلا الأرض إلى حديقة، وعلما روفوس بعض الآداب المتعلقة بالفم، وتأكدا من حصول لولو على طعامها اللذيذ.»

ولكنني وصلت إلى خط حدود الملكية بدون أن أصاب بأي أذى أو أسمع تعبيراً عن الذات بالصياح، وعندما عبرت الحد الفاصل شعرت بأنني أفضل، كما لو أن قلبي كان أثقل وأخف في الوقت ذاته.

الفصل 30

الاعتذار يشبه تنظيف الربيع. أولاً وقبل كل شيء، أنت لا تريد أن تقوم به. ولكن هناك شيئاً بداخلك، أو إنسانة ما خارجك تقف هناك، ويداها على وركيها وتقول، «حان الوقت لجعل الأمور في وضعها الصحيح في كل مكان هنا،» وليس هناك سبيل للهروب من ذلك.

بمجرد أن تبدأ، فإنك تكتشف أنك لا تستطيع أن تقوم بتنظيف غرفة واحدة وتنتهي من الأمر، وإنما يجب عليك أن تنظف المنزل بكامله أو ستقوم بتتبع الغبار من مكان إلى آخر. حسناً، ويبدأ الأمر بأن يبدو وكأنه شيء كثير جداً جداً، وتريد أن تترك العمل أكثر مما تريد عيد الميلاد. ولكن هناك تلك الإنسانة أو الشيء يخبرك مرة أخرى، «استمر في العمل، إنك على وشك الانتهاء. وغير مسموح ترك العمل.»

ومن ثم، فجأة تنتهي من العمل. لقد كان وقتاً مرعباً فظيعاً، وأنت لا تريد أبداً أن تضطر لفعله مرة أخرى في حياتك كلها. ولكنه شيء لطيف تماماً أن ترى كل شيء نظيفاً ويبدو مرتباً.

وعند تلك اللحظة تكون سعيداً تقريباً لأنك قمت به. إلى حد ما.

لذا فقد نمت نوماً جيداً في ليلة السبت، ولكن عندما استيقظت صباح يوم الأحد، عرفت أنني لم أكن قد انتهيت.

خرجت إلى منتصف البستان وأخذت نفساً عميقاً. كانت ساقاي تهتزان لأنني وتلك الأشجار لم نكن قد دردشنا منذ فترة طويلة، ولم أكن متأكدة إلى أي مدى سيكونون غاضبين وربما عنيفين. لقد كانوا هناك جميعهم، ومن الممكن أن يكون بعضهم وقحاً جداً، كما تعلمون.

وبدأت قائلة، «أنا آسفة لأنني لم أستطع حماية أصدقائكم. أنا آسفة لأنني لم أتمكن من إنقاذ وينستون وفيلومينا، وبقيتهم. يقول أبي يمكننا أن نزرع المزيد من الأشجار في الحقل الجنوبي، وأنا أعلم أن ذلك لن يجعل أي شيء على ما يرام، ولكننا نحاول.» كنت أعلم أن ذلك الجزء لن يجدي نفعاً، وربما حتى كان يؤذيني معهم، ولكن لسبب ما أردتهم أن يعرفوا أن أمي وأبي كانا مهتمين بالأمر.

قلت، «إنني أفتقدهم أنا أيضاً.»

حسناً، كل تلك الأشجار، المئات منها، ولا واحدة منها نطقت بكلمة. لقد كنت قد بدأت أفكر بأن اعتذاراتي جعلت

أصوات الناس تتجمد، وقد تعين علي أن أحاول ذلك مع إيما آرونسون في المرة القادمة عندما تبدأ في التحدث عن كم هي جيدة لدرجة أن الملائكة قد حجزت لها مكاناً خاصاً لتجلس فيه إلى جانبهم في الجنة.

ولكن إذا كان قد سبق لك وأن تحدثت إلى مجموعة من الناس، وكانت تلك المجموعة من الناس هم بعضاً من أفضل أصدقائك، وتصرفوا كما لو أنهم لم يسمعونك، وكما لو لم تكن حتى موجوداً، فإنك تعرف كم يمكن أن يجعلك ذلك تشعر بالوحدة. أعتقد أنني قد بلغت أقصى حدودي بشأن شعوري بالاستياء تجاه نفسي، وبالوحدة، وبالتعب بشكل عام. لذا، فقد جلست على الأرض وبكيت.

وبما أن تلك الأشجار لم تكن تتحدث إلي، ولكنني كنت أدرك أنها لم تكن تذهب إلى أي مكان، أيضاً، فقد أخبرتها كل شيء. لقد جعلت كل شيء ينساب خارجي، ولأول مرة، على ما أعتقد. أخبرتهم عن أمي وعن الورم، وعن الآنسة مايرز واسمي، وما فعلته لطفلي عائلة ديلونا، وما قلته لأمي وأبي. وكم افتقدت تلك الأشجار، ولكنني كنت أدرك أنها قد تكون غاضبة مني، وكنت أخشى أن يحدث شيء من ذلك القبيل تماماً، لذا، لم أحضر للزيارة.

عندما انتهيت من كل شيء، كان لا يزال كل شيء هادئاً. ولدقيقة شعرت بذلك الخوف الفظيع الذي يحدث لك عندما تفكر بأنك ربما لن تحظى أبداً بصحبة شخص تحبه مرة أخرى.

ولكن فيولا، الألطف في المجموعة، همست عندئذ، «لقد افتقدناك نحن أيضاً، يا آيدا بي.»

وقال موريس، الرابع تقريباً في اللطف، «مرحباً بعودتك، يا آيدا بي.»

وعندئذ، وعلى الفور، كان قلبي على وشك أن يفيض بالسعادة.

وبعد ذلك، قال ذلك البغيض بولي تي.، «لا زلت غاضباً، ولا أعتقد أنني أنسى أي شيء، يا آيدا بي. ولست متأكداً جداً بشأن الغفران، أيضاً.»

قالت فيولا، «أوه يا بولي تي.»

ولكنني كنت أشعر بأنني أفضل بكثير، وكان بإمكاني التعامل مع بولي تي. بنفسي.

سألته، «هل ستحمل ضغينة؟»

رد قائلاً، وهو ذلك المعروف بوقاحته،»لا أعرف.»

قلت له، «ذلك جيد يا بولي تي. ولكن إذا كنت ترغب في الحديث، فإنني على استعداد للاستماع.»

ومن ثم دردشت مع الأشجار اللطيفة لفترة قصيرة، ولم يكن ذلك مثل الأيام الخوالي. ولكن، في بعض الأحيان، عندما تكون قد مرت فترة من الزمن دون أن تتحدث مع صديق، حتى وإن كان ذلك شيئاً غريباً وقاسياً ولا تعرف بالضبط ما تقوله، فإن ذلك لا يزال يجعلك تشعر أفضل من أي وقت مضى.

وقبل مرور وقت طويل كان قد حان موعد الذهاب، حيث كان لدي بضع محطات توقف أخرى كان يتعين علي القيام بها في طريق آيدا بي للتكفير عن الأخطاء. مشيت كل الطريق إلى طرف البستان قبل أن أدرك أنه كان لدي شي آخر كان يتعين عليه قوله لتلك الأشجار.

استدرت بحيث أصبحت أواجه جميع الأشجار. وقلت لها، «لن أدع ذلك يحدث مرة أخرى أبداً، لن أدع ذلك يحدث مرة أخرى أبداً، أعدكم.» واتجهت نحو الغدير. وبدأ الغدير على الفور بطرح الكثير جداً من الأسئلة بحيث لم أعد أتمكن من المتابعة. «أين كنت يا آيدا بي؟ ما الذي كنت تخططين له؟ لماذا لم تمري لزيارتي؟ ما الذي كان يجري؟» ومن ثم بدأ بتكرار ما قاله، ولكنني قاطعته.

وقلت، «أنا آسفة لأنني لم أمر لزيارتك، لقد كنت منشغلة وحزينة، وذلك ليس عذراً، ولكنني افتقدك، والآن عدتُ، لذا، لا تقلق.»

بعد ذلك، كان يتعين علي أن أذهب لأن الغدير يستطيع أن يشغلك طوال اليوم وأنت تستمع فقط، وقد كان لدي مكان واحد آخر كان لا بد لي من الذهاب إليه.

عندما تسلقت إلى قمة الجبل، تنحنحت.

وقلت، «مرحباً.» ووقفت هناك أمام الشجرة العجوز، وظهري مستقيم، ويداي مضمومتان أمامي. سألت، «تبدين على ما يرام. كيف حالك؟» فقط لأجعل الأمور تسير بطريقة ودية.

ولكن الشجرة العجوز لا تهتم كثيراً بالحديث القصير، لذا، فقد واصلت حديثي.

قلت، «أنا آسفة لأنني كنت وقحة. أنا آسفة لأنني كنت عديمة الاحترام، إلى حد ما، لأن كل شيء سار على ما يرام، ولكن ليس تماماً. لقد صببت جام غضبي عليك، وأنا أعتذر عن ذلك.»

ولكن لم تقم تلك الكلمات بالمهمة. لقد كنت أقول الأشياء المناسبة، ولكن ليس الأشياء الحقيقية في الواقع.

لأنني فعلت شيئاً خاطئاً تماماً للشجرة العجوز، ولأنني لم أكن أريد أن أعترف بأنني قد فكرت حتى في فعله. عندما ركلت تلك الشجرة، لم أكن أحاول فقط أن أخيفها، لقد كنت أحاول أن أؤذيها. وقد مررت بوقت عصيب وأنا أتخيل أنني أسامح شخصاً قام بفعل الشيء ذاته.

اقتربت منها أكثر، وتحدثت بهدوء أكثر، وهمست، «هذا قاسٍ.»

كان قلبي يضرب داخل صدري بحيث كان بإمكاني سماعه في أذني، والشعور به في أصابع يدي. أغلقت عيني، وأخذت نفساً عميقاً، وملأت نفسي بالنسيم القادم من الوادي. بعد ذلك، تركته يخرج ببطء بحيث يمكنه العودة إلى رحلاته، مع القليل جداً مني مضافاً إليه.

قلت داخل جذع الشجرة العجوز بالضبط، «أنا آسفة لأنني ركلتك. أنا آسفة لأنني كنت شريرة، أنا آسفة جداً.»

بعد ذلك، لم أعرف ماذا أقول أيضاً، لذا فقد وقفت هناك لفترة طويلة جداً، بدون أن أصغي إلى الشجرة لتقول لي شيئاً ما، ولكن فقط لأكون هناك معها. لأن ذلك كان يمنحني شعوراً جيداً.

كانت الرياح تصفر قليلاً على قمة الجبل، ولكن كل شيء آخر كان هادئاً. وبعد برهة، أصبحت كلّي هادئة وساكنة، أيضاً.

لقد شعرت بالوحدة مرة أخرى، ولكن ليس بطريقة سيئة. لقد شعرت كما لو كان من الممكن أن تنمو لي جذور، وأقف كل الوقت هناك تماماً على الجبل، وأن لا أكون وحيدة مرة أخرى أبداً. حتى وإن رحلت الشجرة العجوز.

بعدئذ، سمعت همهمة. لقد كانت تأتي من الشجرة، تماماً مثلما تهمهم ويمكنك أن تشعر بارتعاش في شفتيك. حسناً، إن الهمهمة التي كانت صادرة من الشجرة جعلت جسدي بكامله يرتعش تلك الرعشة الخفيفة.

وأخبرتني الشجرة العجوز شيئاً فهمه قلبي، ولكنه لم يكن بالكلمات. لقد كان معرفة. ولكن إذا كان لا بد لي من ذكره بكلمات، وإذا كان يتعين علي أن أخبرك بما قالته الشجرة لي، فإنه سيكون هذا فقط:

«دائماً.»

تلك الهمهمة والارتعاش حطما القطع الصغيرة الأخيرة من قلبي القاسي كالصخر التي لم أعرف حتى أنها كانت لا تزال هناك، وانهمرت الدموع من عينيّ، ولكنني لم أكن أبكي. وضعت أطراف أصابع يدي اليسرى على جذع تلك الشجرة العجوز وشعرت بالبياض الدافئ الأجرد الناعم.

قلت، «أنا أيضاً.»

الفصل 31

أعتقد أنه قد يبدو من اللطيف جداً لو أنني التقيتُ وكلير معاً يوم الاثنين وبدأنا ندردش ونلعب الكرة الخادعة، وقررنا أننا كنا توأماً وتم فصلنا عند الولادة، وأننا سنكون أفضل صديقتين لبقية حياتنا، نعيش بالقرب من بعضنا البعض. ولكننا لم نفعل ذلك.

أعتقد أنها كانت تنظر إلي أكثر، أو أنها لم تعد تتجنب النظر إلي كثيراً، ولم أعد أراقبها من زاويتي مقلتي عينيّ. وكنا حتى نقول، 'مرحباً،' ولكن بدون ذكر أسماء، إذا صدف وتقابلنا معاً وجهاً لوجه.

الشيء الجيد كان أنني لم أكن أشعر بانزعاج عندما كنت أراها. لقد كنت لا أزال آسفة على ما فعلته، ولكنني لم أكن أعتقد أنني كنت أستحق أي تعذيب أو ألم بسبب ذلك. وإذا كانت كلير تريد أن تعتقد ذلك، فذاك شأنها، ولكنني لم أكن أسعى لذلك.

في فترة الفرصة من يوم الاثنين، توقفت الآنسة دبليو بالقرب من مكاني على الدرجات مثل العادة.

وسألت، كما تسأل دائماً بالضبط، «هل لديك أي شيء تريدين التحدث عنه، يا آيدا؟»

قلت، «لا، يا سيدتي.» ولكن هذه المرة نظرت إليها بشكل مباشر وابتسمت.

نظرت في عينيّ، كما لو كانت تتفحص لتتأكد من أنه كانت للابتسامة جذور عميقة داخلي. وردت الابتسامة قائلة، «حسناً، إذن.» وواصلت طريقها.

سألني روني للمرة المائة والأربع عشرة في يوم الخميس بعد عطلة اعتذارات آيدا بي، «هل تريدين أن تلعبي الكرة الخادعة، يا آيدا؟»

والآن لا أعرف لماذا يوجد أناس مثل روني، يستمرون بالمحاولة، لا سيما مع أشخاص مثلي جيدين في قول «لا.» وهذا يجعلني تقريباً أتساءل ما إذا كان ذلك الجزء من دماغه الذي عانى من أوقات عصيبة في تعلّم جداول الضرب، قد عانى من أوقات عصيبة في تعلّم متى يقبل «لا» كإجابة. قد تقول أمي إنه لحوح، وفي كثير من الأيام كنت أجد تلك الصفة التي يحملها متعبة. ولكن في ذلك اليوم بالذات، وجدت مثابرته بمثابة شيء كنت ممتنة له تقريباً، إذا سمحت لنفسي بالاعتراف بذلك. ولكن لم يكن بإمكاني أن أكون مستعدة جداً للموافقة بسرعة كبيرة.

سألت، «من يلعب؟»

«الجميع تقريباً. أترينهم جميعاً هناك؟»

«في فريق من سأكون أنا؟»

«يمكنك أن تكوني في فريقي، إن شئت.»

«هل ضرب الكرة بعنف مسموح به؟» كنت أعرف أنه لم يكن مسموحاً به، لأنني كنت أشاهد أولئك الأطفال وهم يلعبون لأسابيع، ولكنني كنت أتظاهر بأنني كنت أدرس قراراتي بعناية.

«لا.»

«إذا لم يعجبني الوضع، هل يمكنني الخروج من اللعبة بعد مباراة واحدة؟»

«بالتأكيد.»

«وماذا يحدث لو ضربت الكرة بحذائي وبالأرض في الوقت ذاته - هل أخرج من اللعبة؟»

«لا أعرف.»

والآن ها هو شيء آخر عن روني وتلك الصفة التي يحملها. في ذلك الحين، كان معظم الناس يملون مني ومن أسئلتي، وينصرفون. ولكن روني استمر وأرهقني. وقد نفدت الأسئلة لدي.

قلت، «موافقة.» بدون أن أجعل صوتي يبدو متحمساً جداً.

وروني يكون ذكياً جداً في بعض النواحي، فهو لم يتصرف كما لو كان متفاجئاً أو سعيداً. لقد قام فقط بالمشي معي نحو ساحة اللعب، ولكنه لم يكن قريباً جداً مني.

وأخرجتني من اللعبة على الفور، تينا بوليتي فعلت ذلك، لأنني لم ألعب الكرة الخادعة أبداً من قبل، على ما أظن. لقد حدث شيء لي عندما خرجت هناك، لذا فقد وقفت هناك أشاهد الكرة تأتي عليّ تماماً ولم أفعل شيئاً. لقد ارتطمت بي في بطني وسقطت على الأرض، وصرخت تينا، «أنت خارج اللعبة.» وخرجت وجلست على جانب الساحة إلى أن انتهت اللعبة.

ولكنني لعبت بشكل أفضل في المباراة الثانية. وعند نهاية الفرصة كنت أعتقد أنه كان بإمكاني أن أتقدم تدريجياً لأصبح لاعبة الكرة الخادعة ذات مهارة رائعة وشهرة.

الفصل 32

بعد العشاء من يوم الجمعة، كان أبي يعمل في الحظيرة، وكنت وأمي نغسل الأطباق.

كانت أمي تغسل الأطباق ببطء، وكنت أنا أقوم بتنشيفها بشكل أبطأ، كما لو كنا نفسح بعض المجال للأطباق لكي تخبرنا شيئاً إذا ما احتاجت لذلك.

وضعت أمي أحد الأطباق على الرف ليتم تنشيفه، ومن ثم وقفت هناك. نشفّتُ ذلك الطبق ومن ثم نشفته مرة أخرى لأبقي نفسي مشغولة إلى أن يأتي طبق آخر.

وأخيراً قالت أمي، «آيدا بي.»

رددت عليها، «نعم يا أمي.» وكنت لا أزال ألمّع ذلك الطبق الذي كان بيننا.

وبدأت أمي، «أحياناً ...» ومن ثم توقفت، كما لو كانت تعاني من مشكلة في معرفة كيف ستنتهي.

حاولت مرة أخرى، «آيدا بي، أحياناً ...» ومن ثم أدارت جسدها نحو جسدي.

حسناً، لقد كان يبدو كما لو أن جسد أمي كان مغنطيساً، حيث جعل جسدي يستدير نحوها، أيضاً، ولم تتمكن عيناي من فعل أي شيء سوى النظر لتريا ما الذي كانت تفعله عيناها.

وهناك كانت أمي، قريبة جداً بحيث كان جلدي يوخزني كما لو كان يتوقع أن يتم لمسه. أمي هذه، التي كانت مختلفة عن أمي القديمة. لقد كانت أبطأ وأهدأ، وحتى عندما كانت تضحك كان هناك حزن يظهر حول فمها ولم يكن يزول أبداً. ولكن مشاعري الداخلية كانت تعرفها. وكان لعينيها ذلك التألق، أكثر إشراقاً مما كان عليه منذ فترة طويلة. لقد كانتا تبتسمان، وتتساءلان.

وقالت، «أحياناً، يا حلوتي،» بنعومة مثل نعومة خطوات في ثلج هطل حديثاً، «أود أن أسمع تلك القصة التي قرأتها في المدرسة.» نظرت أمي إلى الأسفل وأخذت نفَساً لتملأ نفسها من جديد. ثم عادت إلي، «هل يمكن أن تقرأي تلك القصة لي يوماً ما، يا صغيرتي؟»

ومن ثم كان هناك صمت بيننا.

والآن، لقد كنت أعرف أن ذلك الصمت كان يحتاج مني أن أتجاوزه. ولكن حتى وإن كانت أمي هناك، فإن المسافة بيننا كانت تبدو شاسعة بشكل مخيف، وكان اجتيازها يبدو مثل مغامرة خطيرة. لقد كنت أفكر بأنني ربما أرغب في قضاء بعض الوقت لإعداد خطة من أجل اجتيازها بدون أن أتعرض لأذى.

ولكن قلبي الجديد القديم الكبير والممتلئ أخبرني بأنه إذا كنت سأتخذ خطوة بدون دراستها كثيراً جداً، فإنني سأكون في طرفة عين على الجانب الآخر.

لذا، فقد فعلت ذلك.

قلت، «حسناً يا أمي.»

ابتسمت أمي، ومن ثم استدارت وعادت لغسل الأطباق من جديد. وضعت الطبق في مكانه وكنت مستعدة للطبق التالي.

لقد تنقّل التوهج في جميع أنحاء الغرفة ولف نفسه حولنا، كل منا على حدة، ثم كلتينا معاً.

وعندما كنت وأمي على وشك الانتهاء، دخل أبي. شرب كوباً من الماء، ونظر خارج النافذة من فوق المغسلة، ومشى حول طاولة المطبخ، ونظر خارج النافذة مرة أخرى، وتنحنح، وقال، «إنها ليلة جميلة في الخارج.»

ردّت أمي، «هممم،» ولمست ذراع والدي وهي تمر بجانبه، وتوجهت نحو الكرسي الكبير.

بقي أبي يحدق بإمعان خارج النافذة كما لو كان يبحث عن شيء ما ذي أهمية بالغة. وبعد ذلك، تنحنح مرة أخرى، وقال، «آيدا بي، لنتمشى قليلاً.»

حسناً، لم أقضِ وقتاً مع أبي لوحدنا منذ وقت طويل. وجعلتني فكرة ذلك الأمر عصبية نوعاً ما، حيث أننا في آخر مرة

قضينا فيها بعض الوقت لوحدنا أخبرني بأنهما كانا سيبيعان الأرض وبأنني كنت سأعود إلى المدرسة، ولم تمر الأمور بشكل جيد منذ ذلك الحين. ولكنني كنت لا أزال أشعر باليقين الدافئ منذ الوقت الذي كنت فيه مع أمي، لذا فقد قلت، «حسناً يا أبي.»

نظرت إليها وسألت، «أمي، هل تريدين أن تأتي؟» معتقدة أن ذلك قد يخفف من وطأة وجودنا معاً.

ولكن أمي ابتسمت من حيث كانت تجلس. «إنني متعبة يا صغيرتي، اذهبا أنتما الاثنان وحدكما.»

وهكذا أخذنا معنا ملك مدينة اللعاب وتوجهنا نحو الخارج، ومشينا مسافة طويلة مع كون لهاث وتجرُّع روفوس هما الصوتين الوحيدين اللذين كان يصدرهما أي من أفواهنا.

عندما وصلنا إلى الطرف البعيد من البستان، رفع أبي نظره إلى النجوم، وأخذ نفساً عميقاً وقال، «نحن المسؤولون عن رعاية الأرض، يا آيدا بي.»

الآن، لا بد وأن أعترف بأنه بعد كل الأشياء الفظيعة التي حدثت والتي تم القيام بها في تلك السنة، كنت مندهشة قليلاً لسماع أبي يقول ذلك لي مرة أخرى. لقد كنت مندهشة لدرجة أن قدميّ ارتبكتا، وتعثرت إحداهما بالأخرى. لقد كنت على وشك الطيران في الهواء، وأنا في طريقي إلى لقاء ليس ودياً جداً مع الأرض وبعض الحجارة ذات الأطراف الحادة والحجم الكبير.

ولكن قبل أن أقع رأسياً في التراب، أمسك بي أبي من قميصي من الخلف، وسحبني إلى الأعلى، وأوقفني على قدميّ. ومن ثم انتصب أمامي، ونظر في عينيّ، وسأل، «هل أنت بخير؟»

لم أمضِ وأبي الكثير جداً من الوقت ننظر بشكل مباشر إلى بعضنا البعض منذ فترة طويلة، وأعتقد أن رؤية عينيَ بعضنا البعض سبب شيئاً من الصدمة والانبهار لكلينا. لذا، فقد بقي كلانا هناك يحدق، ومحرج قليلاً ومنذهلاً نوعاً ما، لمدة دقيقة أو نحو ذلك.

ولم ينبس أي منا ببنت شفة، ولكنني أقسم بأنني سمعت أبي يتكلم. كما تتكلم الشجرة العجوز، ليس في الكلمات، ولكن شعوراً دخل مباشرة إلى قلبي. ولكن إذا كان لا بد لي من أن أعطي ذلك الشعور بعض الكلمات، فهذا هو ما أعتقد أنه كان يقول:

«أنا آسف.»

حسناً، لقد بدا الأمر كما لو كان أبي يتفجر بمفاجآت. وهذه المفاجأة كانت عبارة عن صدمة، لقد اعتقدت أنني ربما أبدأ بالسقوط مرة أخرى، ولكن إلى الخلف هذه المرة. ولكن الحزن والصدق في عينيه أبقياني واقفة وثابتة، هناك معه.

بعد ذلك، أرسلت إلى أبي رسالة. ليس بالكلمات، وإنما مجرد شعور. ولكنني جعلت جسدي يظهر له ما كان قلبي يخبره، بحيث لا يفوّته أو يصاب بارتباك.

وضعت يدي على كتفه ونظرت في عينيه بعمق وتمعن قدر استطاعتي، إلى أن كان بإمكاني أن أدرك أن الحزن الذي كان هناك كان ينتبه. بعد ذلك أومأت برأسي، مرتين. وكان ذلك كل شيء.

قال أبي وهو يقف، «حسناً إذن،» ونفض بنطاله الذي لم يكن وسخاً، واستدار بحيث كان كلانا يواجه المنزل.

بدأنا المشي مرة أخرى، وكان روفوس في المقدمة، وقد عاد من خلال البستان نحو المنزل. وعندما وصلنا إلى الحافة التي عليها أشجار التفاح، توقفت وقلت، «أبي؟»

توقف هو أيضاً، «نعم، يا آيدا بي؟»

«أعتقد أن الأرض تعتني بنا.»

وقد فرك ذقنه وبدا كما لو كان يتأمل في تلك الفكرة، ولكن ليس لفترة طويلة كما في المرة الماضية التي تحدثنا فيها ذلك الحديث بعينه. وقال للسماء والنجوم والوادي، «أعتقد أنك على حق، يا آيدا بي.»ومن ثم اتجهنا نحو المنزل.

وكان بإمكاني أن أسمع ونحن نمشي الأشجار وهي تهمهم بالموافقة، «ممم- هممم،» وكان بإمكاني أن أشعر بها وهي تقوم بفعل شيء ما يشبه الإيماء برؤوسها، لو كان لها رؤوس تومئ بها.

نظرت إلى الأعلى نحو الجبل ورأيت الشجرة العجوز تتلألأ مع سطوع ضوء القمر عليها، وفجأة شعرت بأنني مثقلة مرة أخرى بحيث أن قلبي ربما كان سيقفز إلى حنجرتي. وكنت أفكر كيف يمكن أن يجتاحك هذا الشعور من اللامكان، ولو لم يكن ذلك

شعوراً رائعاً جداً، فربما كان، على ما أعتقد، مخيفاً. كما لو كان في داخلك حب وأفكار طيبة وأشياء قوية أكثر مما يمكن لجسد واحد أن يحتمل.

قلت لأبي ونحن نصعد درجات الشرفة، «سأدخل بعد قليل.»

«حسناً، يا آيدا بي.»

وجلست على الشرفة أنظر إلى كل تلك الأرض وإلى الجبل والأشجار والنجوم التي لم تكن لي على الإطلاق، ولن تكون أبداً. ولكن بطريقة أو بأخرى كانت ستخصني دائماً، ولم يكن بإمكاني أن أتخيل أنني لا أنتمي إليها. ليس لذلك معنى واضح بالكلمات، ربما، ولكن كان له معنى بالنسبة لي في تلك الليلة.

همست، «ليلة سعيدة!»

ورد علي صوت جماعي هادئ يحمله النسيم، «ليلة سعيدة، يا آيدا بي.»

إننا نهتم بصحة هذا الكوكب وجميع سكانه، لذا، فإن كافة الطبعات ذات الغلاف المقوى، والطبعة الأولى ذات الغلاف الورقي من هذا الكتاب قد تمت طباعتها على ورق معاد تدويره 100٪ بعد الاستهلاك (هذا يعني أنه لم يتم قطع أي أشجار لإنتاج الورق). وقد تمت معالجة ذلك الورق بمواد خالية من الكلور، وذلك لأنه عندما يتم استخدام الكلور لتبييض الورق، فإنه ينتج عن تلك العملية منتجات ثانوية سامة تسمى الديوكسين والفيوران، والتي يمكن أن تسبب المرض للناس والحيوانات.

نتيجة لهذه الخيارات، فإن جميع النسخ المطبوعة حتى تاريخه من آيدا بي قد حافظت على:

2.107 أشجار

(304 أطنان من الخشب)

768.289 غالوناً من الماء

98.659 باونداً من النفايات الصلبة

1.5 تريليون وحدة حرارية بريطانية من الطاقة

(ما يعادل حاجة 16 منزلاً أميركياً عادياً من الكهرباء في سنة واحدة)

185.095 باونداً من غازات الدفيئة و البيوت الزجاجية

(ما يعادل الانبعاثات السنوية من 17 سيارة)

176 باونداً من ملوثات الهواء الخطرة

تم إجراء تقديرات الأثر البيئي باستخدام حاسبة الورق من الدفاع البيئي (Environmental Defense Paper Calculator). للحصول على مزيد من المعلومات، قم بزيارة

http://www.papercalculator.org

شكر وعرفان

أتقدم بخالص شكري إلى:

أمي وأبي، اللذين أنشآني، دائماً، مع الكتب؛

عمتي «دورين،» التي أضافت أغاني وقصصاً من أغرب الأنواع؛

كارول كريتون وماري جو فيفر، أفضل المعلمات؛

كيت ديكاميلو، وأليسون ماكغي، وهولي ماكغي، أروع القراء والمحررين والمناصرين؛

لين لانينغ، آر إن، أو سي إن، لصبرها في تقديم الإرشادات والنصح؛

ستيف جيك، والجميع في غرين ويلو بوكس آند هاربركولينز لكتب الأطفال، الذين منحوا *آيدا بي* تلك العناية الاستثنائية؛

كاثرين ديمبسي وأنجيلا هانيغان، والجدتين اللتين أحمل اسميهما، على هدايا رواية القصص والإرادة القوية والتي لا تلين؛

فيكتور كلارك الذي استمع المرة تلو الأخرى بحب وباستمرار.

نشأت كاثرين هانيغان في غربي ولاية نيويورك وحصلت على شهادات جامعية في التعليم والرياضيات والفنون. وقد عملت كمنسقة تعليم لبرنامج هيد ستارت، وعملت في الآونة الأخيرة كأستاذة مساعدة في الفن والتصميم. تعيش شمال شرقي ولاية إيوا. وآيدا بي هي رواية كاثرين هانيغان الأولى.

طبع هذا الكتاب على ورق مستهلك ومعاد تصنيعه مئة بالمئة ولا يدخل فيه الخشب اطلاقاً (وهذا يعني بأنه لم يتم قطع أي شجرة في تصنيع ورقه)

This book were printed on 100% postconsumer recycled paper (that means that no trees were cut down to create the paper)

آيدا بي آبلوود تؤمن بأنه ليس هناك أبداً

ما يكفي من الوقت للمرح

لذلك السبب هي سعيدة جداً لكونها تتعلم في المنزل ولكونها تمضي كل لحظة فراغ في الخارج مع الأشجار والغدير.

بعد ذلك تحدث في عالمها بعض الأمور غير الجيدة، إذ كان يتعين على آيدا بي أن تعود إلى تلك المدرسة التي كانت مكان التعذيب البطيء، ولكن الذي من المؤكد أنه يسبب تشنجاً للجسم وتخديراً للعقل ويقتل المرح. وهي تشعر بأن قلبها يصبح أصغر وأصغر، ويتصلب على شكل حجر أسود حاد.

كيف يمكن للأمور أن تنتقل من الأصح من الصحيح إلى ما يتجاوز الخاطئ بملايين الأميال؟ هل يمكن لآيدا بي أن تقوم بإعداد خطة لإعادة الأمور إلى الوضع المثالي تقريبا مرة أخرى؟

«لا يحدث كثيراً أن يبدو أي كتاب جديد جاهزاً لمنافسة الأدب الكلاسيكي في التشويق وبقاء التأثير. آيدا بي للكاتبة كاثرين هانيغان هو كتاب من ذلك النوع.»

ذا بلين ديلر

«لا تدع فرصة قراءته تفوتك.»

سكول لايبراري جورنال



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12 ، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2014